قضايا النقد الأدبى
فى مقدمة كتاب(الشعر والشعراء) لابن قتيبة

إعداد الدكتور
محمد محمد محمد جمعة نوارج
مدرس الأدب والنقد
بكلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات ببورسعيد

قضايا النقد الأدبى
فى مقدمة كتاب(الشعر والشعراء) لابن قتيبة

محمد محمد محمد جمعة نوارج

شعبة اللغة العربية – قسم الأدب والنقد – كلية الدراسات الإسلامية والعربية بنات بورسعيد – جامعة الأزهر.

البريد الألكتروني : Mohamednawarg.173@azhar.edu.eg

الملخص :

يهدف البحث إلى إبراز دور النقد العربي القديم في إرساء دعائم النقد وتحديد أطره من خلال مصنفات النقاد القدامي ، فيكشف عن دور أحد أعلام النقد القدامى وهو ابن قتيبة من خلال مقدمة كتابه الشعر والشعراء حيث يعد ابن قتيبة من المؤسسين الكبار لنقدنا العربى القديم، بآرائه وأفكاره وأحكامه النقدية، وجمعه لشتات النقد العربى الذى سبقه، ودوره البارز فى جمع قضاياه في تلك المقدمة التى برز فيها جهده الكبير فى جمع النظائر والأشباه إلى بعضها لتتشكل منها قضايا النقد الأدبى القديم فى أطر محددة وواضحة، إضافة إلى جهده الخاص، وإضافاته فى تلك القضايا، المتمثلة فى بعض آرائه وأحكامه الخاصة، ورؤيته الذاتية ، وكذا إبراز جهده فى تلك القضايا، المتمثل فى جمع المرويات والأخبار النقدية والأدبية التى سبقته، وفى بعض الرؤى الخاصة به فى محاولة لإيضاح جهد هذا الناقد الكبير ودوره الحيوى، وبيان أهمية مقدمة كتابه (الشعر والشعراء) فى تاريخ النقد العربى القديم.

الكلمات المفتاحية : قضايا – النقد الأدبي – مقدمة – كتاب – الشعر والشعراء.

Issues of Literary Criticism in the Introduction of the Book (Poetry and Poets) By Ibn Qutaybah

Mohammed Mohammed Mohammed Gomaa Nwarig

Arabic Language Division, Department of Literature and Criticism, Port Said Faculty of Islamic and Arab Studies for Girls, Al-Azhar University

E-mail: Mohamednawarg.173@azhar.edu.eg

Abstract:

The research aims to highlight the role of ancient Arab criticism in laying the foundations of criticism and defining its frameworks through the compilations of old critics. It reveals the role of one of the great figures of old criticism, Ibn Qutaybah, through the introduction to his book poetry and poets. As Ibn Qutaybah is one of the great ancient founders of our Arab criticism. This due to his opinions, ideas, critical judgments, his collection of the diaspora of the Arab criticism that preceded him, and his prominent role in collecting his issues in that introduction in which he demonstrated his great effort in collecting analogues and likenesses to each other to form the issues of old literary criticism in specific and clear frameworks. Also, he had his own efforts and his particular additions in those issues represented by some of his opinions and judgments, and his self-vision. Besides, he highlighted his efforts in these issues that were represented in the collection of narratives and critical and literary news that preceded him, and in some of his own visions in an attempt to clarify the effort and the vital role of this great critic, and to explain the importance of the introduction of his book (poetry and poets).

Key words:Issues, Literary Criticism, Introduction, Book, Poetry, Poets

المقدمة

فى نقدنا العربى القديم أعلام يتوقف الدارس لتاريخ هذا النقد عندهم طويلا، لدورهم البارز فى النقد العربى القديم، وإرسائهم لقواعده، وتحديدهم لأطره، وبلورتهم لقضاياه المختلفة، ولأن مصنفاتهم المتصلة بالنقد الأدبى – بأى سبب من الأسباب– تعد علامات مضيئة على طريق تاريخ النقد العربى القديم، ومشاعل تضىء الطريق للباحثين والدارسين فى تاريخ ذلك النقد.

ومن بين هؤلاء الأعلام يبرز ابن قتيبة كمؤسس من المؤسسين الكبار لنقدنا العربى القديم، بآرائه وأفكاره وأحكامه النقدية، وجمعه لشتات النقد العربى الذى سبقه، ودوره البارز فى جمع قضاياه. فى أطر محددة لاسيما فى مقدمة كتابه (الشعر والشعراء)، تلك المقدمة التى برز فيها جهد ابن قتيبة الكبير فى جمع النظائر والأشباه إلى بعضها لتتشكل منها قضايا النقد الأدبى القديم فى أطر محددة وواضحة، إضافة إلى جهده الخاص، وإضافاته فى تلك القضايا، المتمثلة فى بعض آرائه وأحكامه الخاصة، ورؤيته الذاتية.

ونظرا لدور ذلك الناقد الكبير، وأهمية مقدمة كتابه (الشعر والشعراء) فى تاريخ النقد العربى القديم، رأيت أن أتناول –فى هذا البحث– جهد ابن قتيبة النقدى فى تلك المقدمة، وأقدم دراسة مفصلة إلى حد ما للقضايا النقدية التى تضمنتها، لإبراز جهد ابن قتيبة فى تلك القضايا، المتمثل فى جمع المرويات والأخبار النقدية والأدبية التى سبقته، وفى بعض الرؤى الخاصة به فى محاولة لإيضاح جهد هذا الناقد الكبير ودوره الحيوى، وبيان أهمية مقدمة كتابه (الشعر والشعراء) فى تاريخ النقد العربى القديم.

وقد بدأت البحث بمقدمة بينت فيها أهمية الموضوع ودواعى دراسته، وخطته، ثم بعدها حديث موجز فى التعريف بابن قتيبة وأوجه تميزه فى مجال النقد الأدبى، ثم ألقيت الضوء على كتاب (الشعر والشعراء) فى قسميه الكبيرين: المقدمة،

والتراجم، فى إطلالة سريعة موجزة على القسمين، وما تضمنه كل منهما، مع تفصيل القول –إلى حد ما– فى أهمية المقدمة، وأوجه التميز فيها، لأنها محل الدراسة فى البحث.

ثم عرضت بعد ذلك لقضايا النقد الأدبى التى وردت فى مقدمة الكتاب بالشرح والبيان، مبينا ما لابن قتيبة وما عليه فيها، من خلال نصوصه فى المقدمة، ودراسات بعض الأعلام السابقين الذين تناولوا الكتاب بالدراسة والتحليل، مع بعض الرؤى والنظرات الخاصة.

وأرجو – بعد ذلك– أن يكون هذا البحث إضافة إلى دراسات السابقين، وأن يكون قد كشف بوضوح عن قضايا النقد الأدبى فى مقدمة كتاب (الشعر والشعراء) لابن قتيبة، وعن دور ابن قتيبة فى تاريخ النقد العربى القديم.

أولا: ابن قتيبة وكتابه

١- ابن قتيبة ودوره النقدى.

هو أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينورى النحوى اللغوى الكاتب وهو فارسى الأصل ، ولد فى الكوفة سنة ثلاث عشرة ومائتين، وتثقف على أهلها، وقيل ولد فى بغداد، والثابت أنه عاش معظم حياته فى بغداد، وتولى قضاء "الدينور" مدة فنسب إليها، وكان رأسا فى العربية واللغة والأخبار وأيام الناس، ثقة دينا فاضلا، مستقل الفكر، جريئا فى قول الحق، وتوفى فى بغداد سنة ست وسبعين ومائتين[١].

كان ابن قتيبة أوضح الأمثلة للجمع بين القديم والحديث فى اتزان واعتدال وقصد، أخذ نصيبا ضخما فى اللغة والأدب والثقافة العربية القديمة الرصينة، وكان له حظ كبير من العلوم الشرعية والدينية، وكانت له مشاركة فى الفلسفة والبلاغة والمنطق.

كان ابن قتيبة يكتب فى اللغة والأدب والشعر والطبائع والأخلاق والحيوان والنبات والتاريخ والقراءات والحديث والتفسير والفقه، وذكروا له أكثر من ثلاثين مصنفا، وكان خطيب أهل السنة، ورجل هذه معارفه المتنوعة الفسيحة، وهذه ذهنيته التى تستوعب العربية واللغة، وتلم بما شاع فى عصره من ضروب الثقافة الأجنبية. رجل تلك معارفه وذهنيته لابد أن يكون له ذوق خاص، ومنحى خاص إذا تصدى للنقد[٢].

---

(١) دراسات فى نقد الأدب العربى. د/بدوى طبانه ص ٢١١ .
دراسات فى النقد الأدبى عند العرب. د/ محمد على داود ص ١١٦، ١١٧ بتصرف.
(٢) تاريخ النقد الأدبى عند العرب. طه أحمد إبراهيم ص ١٢٠، ١٢١.
قراءات فى النقد العربى القديم.د/محمدين محمدين يوسف ص ١١٧- ١١٩ بتصرف

أوجه تميز ابن قتيبة فى مجال النقد الأدبى.

يتبين مما سبق أن ابن قتيبة ولد ونشأ وعاش وتوفى فى القرن الثالث الهجرى، حيث ولد سنة ٢١٣هـ وتوفى سنة ٢٧٦هـ.

وفى هذا القرن قامت الحركة النقدية "على العناصر النقدية القديمة، التى تتمثل فى: النقد المتصل بضبط الشعر ومعرفة بنية الكلمة، والنقد المتصل بالنحو والإعراب، والنقد المتصل بفنون من القوافى والأعاريض، والنقد الفنى الذى يمس عناصر الجمال فى الأدب ومكان الروعة فيه، كما تتمثل فى غلبة الذاتية عليه، إذ يتأثر بميل الناقد وذوقه ومزاجه وثقافته، وتتمثل أيضا فى النقد المعتمد على الفكر والتحليل وتعليل ظواهر الأشياء، والنقد المتصل بالشعر من حيث صلته بقائله، أو بيئته التى نبت فيها، ومن حيث العوامل المختلفة التى تؤثر فى الأدب فتنوع فيه وتحدث فى فنونه نماذج وصورا كثيرة.

كذلك أثرت الحركة العلمية فى نقد القرن الثالث، حيث وجد فيه عاملان كان لهما أثر كبير فى إيجاد روح خاصة فى نقد هذا القرن، وتتمثل هذه الروح فى تطبيق قواعد العلم على النقد. وهذان العاملان هما:

١) البلاغة العربية التى كثر القول فيها فى هذا القرن، وبدأ وضع المصنفات فيها.

٢) علم المنطق المأخوذ عن اليونان وماله من أثر فى التنظيم والترتيب، وكذلك الفلسفة، وكل ما دخل فى الذهن العربى من المعارف الأجنبية.

ولهذا لم يكن النقد فى هذا القرن سهلا فطريا كالنقد القديم فحسب، وإنما كان أيضا نقدا متشعب النواحى، مختلف الأمزجة، دقيقا متأثرا بكل ما جاء به العلم فى صدر الدولة العباسية، ومتأثرا كذلك بروح النقد القديم، نقد فيه بحوث قيمة، منها ما

أدخل شيئا من الترتيب والتنظيم والقواعد التى تعين الناقد على الفهم والحكم، ومنها ما شرح بعض مظاهر الأدب، وعلل كثيرا من حالاته.

فالنقد فى القرن الثالث يقوم على دعامتين اثنتين: على ما سرى إليه من العصور السابقة من خصائص وأحكام وعلى ما دخل فيه من أثر البلاغة والمنطق والفلسفة والجدل"[١] .

فى ظل هذه الحركة النقدية وما قامت عليه من دعائم، وما اتسمت به من سمات خاصة وجد ابن قتيبة، ونهل منها وأفاد قدرا من الثقافة الأجنبية، تأثر به فى مصنفاته، ومن بينها كتابه (الشعر والشعراء) وظهر تأثره القوى بتلك الحركة، وبالروح العلمية الجديدة التى سادت فى القرن الثالث فى مقدمة كتابه (الشعر والشعراء) التى جمع فيها شتات النقد العربى قبله، وبشىء من الدقة المنهجية، والتنظيم والتنسيق الدقيق، فأخرج لنا مقدمة نقدية على قدر كبير من الأهمية فى تاريخ نقدنا العربى القديم، ليس بما جمع فيها من آراء النقاد السابقين، ونظراتهم، وفكرهم النقدى فحسب، ولا بما قدمه فيها من قضايا النقد الأدبى القديم فى أطر محددة يسهل الوقوف عليها، وإنما بذلك وغيره مما اتسم به منهجه فى التأليف والتصنيف، وبما قدم من آراء وأفكار ونظرات نقدية دقيقة، وبأمور أخرى كثيرة يمكن حصرها فيما يلى:

- كان رأسا فى العربية واللغة والأخبار وأيام الناس، لغة دينا فاضلا، مستقل الفكر، جريئا فى قول الحق، دقيقا فى آرائه ونظراته[٢].
- جمع بين القديم والحديث فى اتزان واعتدال وقصد.
- أخذ نصيبا ضخما من الثقافة العربية والإسلامية، وحظا يسيرا من المعارف الأجنبية.

---

(١) تاريخ النقد الأدبى عند العرب. طه أحمد ابراهيم ص١١٠، ١١١ بتصرف.
(٢) دراسات فى نقد الأدب العربى. د/بدوى طبانة ص ٢١١ .

- كان له حظ كبير من العلوم الشرعية والدينية.
- كتب فى اللغة والأدب والشعر والنقد والطبائع والأخلاق وغير ذلك.
- كان خطيب أهل السنة، وتولى قضاء الدينور مدة فنسب إليها.
- هذه المعارف كلها جعلت لابن قتيبة ذوقا خاصا ومنحى خاصا فى النقد الأدبى، اتسم بسمات كثيرة فى مقدمتها:

١) البحث فى الأدب بروح العلم.

٢) السير بالنقد الأدبى إلى أن يكون كالعلم دقة وتحديدا[١].

٣) وضع النقد الأدبى فى قواعد عامة، يضع الناقد يده عليها عند النقد بسهولة.

٤) تحديد أطر وسمات قضايا النقد العربى القديم التى تحدث عنها في مقدمته.

٥) جمع بين الذوق الأدبى والروح العلمية.

٦) كان جهد ابن قتيبة فى مقدمة كتابه (الشعر والشعراء) أول محاولة لتأصيل النقد العربى وتحديد قواعده.

٧) قدم فوائد كثيرة للحركة النقدية فى عصره، وبعد عصره، تمثلت أبرزها فيما يلى:

أ- التنظيم والتبويب والتحديد، والدقة المنهجية.

ب- جمع الآراء والمرويات النقدية المتصلة بقضية واحدة فى وحدة

(١) تاريخ النقد الأدبى عند العرب. طه أحمد إبراهيم ص ١٢٠، ١٢١ (بتصرف).

متكاملة.

ج- وضع العديد من القواعد التى يستعين بها الناقد فى حكمه على النص الشعرى.

د- الجمع بين الذوق الأدبى والعلم فى النقد الأدبى.

هـ-بعض الآراء الجديدة الدقيقة فى إطار القضايا التى عرض لها.

و- اعتداده بالمقياس الدينى الخلقى فى قياس جودة الشعر، وتابعه فى ذلك نقاد كثيرون. وتؤكد اختياراته الشعرية فى النماذج المستشهد بها هذا المنحى.

وقد تمثل ذلك كله وغيره فى مقدمة كتابه (الشعر والشعراء) التى جمعت بين فكره النقدى، والفكر النقدى للنقاد السابقين، والفكر النقدى للنقاد المعاصرين له، وفندت فى اتزان واعتدال وإنصاف وموضوعية الآراء والنظرات والأفكار النقدية التى كانت سائدة قبله وفى عصره، ووقف فيها وقفة شجاعة تصدى بها للمتعصبين للقديم لكونه قديما فحسب، بغض النظر على ما قد يكون فيه من ضعف ورداءة، وتعصبوا ضد الحديث لكونه حديثا فقط، بغض النظر عما قد يكون فيه من قوة وجودة، وحاول أن يستقيم بمسار النقد الأدبى، ويعدل من نظرته، ويتحول به من التعصب المعيب إلى الإنصاف والموضوعية فى تلك المقدمة النقدية البديعة التى ندرسها هنا، ونحاول أن نبلور ما فيها من قضايا وآراء نقدية، ونبرز أوجه الإنصاف والاعتدال والموضوعية فيها، وما قد يكون فيها من آراء وأفكار جديدة طرحها ابن قتيبة فى ثنايا ذلك.

٢- مضمون الكتاب.

الشعر والشعراء قسمان رئيسان – المقدمة والتراجم.

أ- المقدمة:

أما مقدمة الكتاب: فقد نالت من الشهرة والذيوع ما لم تنله تراجم الكتاب، لاشتمالها على آراء ذوات خطر فى النقد الأدبى، وهى آراء ميزت شخصية ابن قتيبة بما أورده من وجهات ونظرات[١]، فقد أثار مسائل جديرة بالإثارة، وبسط طائفة من الأفكار جديرة بالاعتبار، لأنه فى كثير منها يبدو فى صورة الرجل الذى يعمل للتحرر من التقاليد، والتخلص من القيود التى رأى العلماء والنقاد يعملون للإبقاء عليها وتقييد الأدباء بها[٢].

ومما أدى إلى شهرة تلك المقدمة وذيوعها ما يلى:

١)أول مقدمة نقدية دقيقة فى تراثنا النقدى والأدبى، حيث جمعت العديد من الروايات والآراء النقدية، وهذا جهد ليس باليسير يقدر لابن قتيبة.

٢)جمعت شتات النقد الأدبى السابق فى أطر محددة ودقيقة، فسهلت الوقوف على التراث النقدى السابق على ابن قتيبة.

٣)جمعت الأشباه والنظائر من الروايات والأخبار والآراء النقدية إضافة إلى آراء صاحبها المتصلة بها فى سياق واحد، ومتعاقبة وراء بعضها، فدلت كل مجموعة منها على قضية محددة من قضايا نقدنا القديم، مدعومة بآراء صاحب الكتاب فيها.

٤)إنصاف صاحبها فى كثير من جوانب القضايا النقدية التى عرض لها، وتميزه فيها بالاعتدال والموضوعية.

٥)تضمنت العديد من آراء ابن قتيبة فى القضايا التى عرض لها، وهى آراء

---

(١) نصوص نقدية . د/محمد السعدى فرهود ص ٢٣ .
(٢) دراسات فى نقد الأدب العربى. د/بدوى طبانة ص ٢١٤ .
دراسات فى النقد الأدبى عند العرب. د/ محمد على داود ص ١١٩ بتصرف.

– فى مجملها– مصيبة، وأضافت العديد من الرؤى والنظرات النقدية إلى التراث النقدى العربى السابق.

٦) عكست دقة ابن قتيبة فى التصنيف والتنسيق والترتيب، تأثرا بالقدر الذى ناله من الثقافة الأجنبية لاسيما الثقافة اليونانية، وفى مقدمتها النقد والفلسفة والمنطق.

٧) لا يمكن إغفالها وتجاوزها عند البحث فى تاريخ النقد العربى القديم وقضاياه، لأهميتها، واشتمالها على العديد من قضايا النقد القديم، المدعومة بالمرويات والأخبار والآراء النقدية التى تؤكدها، وتكشف عن جوانبها، وموقف النقد القديم منها، حتى وإن لم يسم صاحبها القضايا باسمها إلا أنها تفهم ضمنا من المرويات والآراء النقدية التى جمعها فى سياق واحد.

ولأهمية تلك المقدمة فى تاريخ النقد العربى القديم، ولما اشتملت عليه من أمهات القضايا النقدية التى أثارها نقدنا القديم فيما جمعه فيها صاحبها من مرويات وأخبار وآراء نقدية سابقة عليه ومعاصرة له، ومحاولة ابن قتيبة– قدر استطاعته– بلورتها فى أطر محددة، فقد رأيت أن أتناول قضايا النقد الأدبى العربى القديم التى تضمنتها تلك المقدمة.

أعرف أن هناك العديد من الكتب والبحوث التى تناولت النقد العربى القديم بالدراسة والتحليل من حيث تاريخه وقضاياه، وفيما تناولته جهد ابن قتيبة النقدى فى تلك المقدمة، ولكن لشغفى بابن قتيبة، وتأكدى من سلامة ذوقه الأدبى، ودقته فى آرائه ونظراته النقدية، وتميزه فى مواقفه من القضايا التى عرض لها بالإنصاف والموضوعية ومقدرته على التبويب والتنظيم والتقسيم الدقيق فى مقدمة (الشعر والشعراء) وفى غيرها من مصنفاته، وإحساسى أن لدى ما يمكن أن أقوله فى تحليل فكر ابن قتيبة النقدى فى تلك المقدمة، وعرضه بطريقة منهجية دقيقة، تبرز فكر صاحب المقدمة، وتحدد أطر القضايا النقدية التى عرض لها فى مقدمته،

والكشف عما يمكن أن يكون له، وما يمكن أن يكون عليه، بالحجة القوية والمنطق الهادى، والمناقشة البناءة، فى سياق عرض القضايا التى تناولتها المقدمة.

ولذلك كله رأيت أن أقدم هذا البحث الذى بين أيدينا ويتضمن عرض ودراسة القضايا النقدية فى المقدمة المذكورة، ويحاول أن يبين جهد ابن قتيبة فيها، ودوره فى تاريخ النقد العربى القديم.

وأتطلع أن يكون البحث قد تضمن بين دفتيه، وفى سياق عرض القضايا الشىء الجديد الذى يحسب له، وأن يكون عرض القضايا النقدية فيه، قد خرج فى صورة منهجية دقيقة.

ب- تراجم الكتاب.

أما تراجم الكتاب: فقد حدد ابن قتيبة فى مقدمته الشعراء الذين سيترجم لهم وهم المشهورون المجيدون فى القديم والحديث، وانتهى فى حديثه عن منهجه فى اختيار شعرائه، وفى كيفية الترجمة لهم، إلى الحديث عن الشاعر الذى يطلق عليه لقب الشاعر، والذى سيختاره فى تراجمه، فقال:

" ولم أعرض فى كتابى هذا لمن كان غلب عليه غير الشعر. فقد رأينا بعض من ألف فى هذا الفن كتابا يذكر فى الشعراء من لا يعرف بالشعر، ولم يقل منه إلا الشذ اليسير، كابن شبرمة القاضى، وسليمان بن قتّه المحدث، ولو قصدنا لذكر مثل هؤلاء فى الشعر لذكرنا أكثر الناس، لأنه قلّ أحد له أدنى مسكة من أدب، وله أدنى حظ من طبع، إلا وقد قال من الشعر شيئا، ولاحتجنا أن نذكر صحابة رسول الله ﷺ ، وجلة التابعين، وقوما كثيرا من حملة العلم، ومن الخلفاء والأشراف، ونجعلهم فى طبقات الشعراء" [1].

إن الشاعر فى رأى ابن قتيبة هو الذى منح الشعر كل طاقته الإبداعية، حتى

(1) الشعر والشعراء حـ١ ص٦٧، ٦٨ .

أصبح يعرف بالشعر وليس بأى إبداع سواه، أما أولئك الذين يتعاملون مع الشعر تعاملا هو إلى الترف أقرب منه إلى المعاناة، فإنهم خارج دائرة هذا الفن الذى يمكن أن نؤكد أنه يحتاج من شاعره إلى تضحيات جسيمة، والى معايشة كيانية لكل نبضات التجربة التى يحاول تجسيدها، والى انقطاع كامل للتأمل فى أسراره وغوامضه وطرائف الإبداع الجمالى من خلاله.

فابن قتيبة هنا يقرر مبدأ التعامل مع الشعراء الحقيقيين وحدهم فى كتابه، أولئك الذين وهبوا أعمارهم للشعر، وأعطوا فيه عطاءات عرفوا بها وعرفت هى كذلك بهم، تجاوز النماذج الركيكة أو نماذج العفو الشعرى الذى لا يدل على انتماء حميم لهذا الفن العظيم[1].

لقد قصد ابن قتيبة عمدا إلى المشهورين من الشعراء الذين يعرفهم جل أهل الأدب، والذين يقع الاحتجاج بأشعارهم فى الغريب، وفى النحو، وفى كتاب الله عز وجل وحديث رسول الله ﷺ ، أمـا المغمورون الذى خفى اسمهم، ولا يعرفهم إلا بعض الخواص، فقليل من هؤلاء من ذكرهم ابن قتيبة[2].

تحدث ابن قتيبة عن المشهورين من الشعراء إلى أوائل القرن الثالث، يذكر الشاعر وزمنه ومنزلته وقبيلته، وصلة شعره بحياته، والحسن من أخباره، والجيد من قوله، وما أخذ عليه العلماء من الخطأ فى الألفاظ والمعانى، والمعنى الذى ابتدعه، والمعنى الذى أخذه عن غيره، وفى هذا الكتاب بعض المحدثين كبشار والعتابى والنمرى، والحسن بن هانىء ومسلم وابن مناذر ودعبل الخزاعى[3].

---

(1) قضايا نقد الشعر فى التراث العربى.د/محمد العزب حـ١ ص ٢٤٧ .
وانظر: اتجاهات النقد الأدبى العربى. د/محمد السعدى فرهود ص ٢٣١- ٢٣٣ بتصرف.

(2) نصوص نقدية . د/محمد السعدى فرهود ص ٢٢ ، ٢٣ .

(3) تاريخ النقد الأدبى عند العرب. طه أحمد إبراهيم ص ١٢٥.
- قراءات فى النقد العربى القديم. د/ محمدين محمدين يوسف ١٢٢، ١٢٣ بتصرف.
- دراسات فى النقد الأدبى عند العرب .د/ محمد على داود ص ١١٩، ١٢٠ بتصرف.

ويحدثنا ابن قتيبة عن منهجه فى كتابه وفى تراجمه للشعراء بشكل خاص فيقول: " هذا كتاب ألفته فى الشعراء، أخبرت فيه عن الشعراء وأزمانهم وأقدارهم وأحوالهم فى أشعارهم. وقبائلهم، وأسماء آبائهم، ومن كان يعرف باللقب أو بالكنية منهم، وعما يستحسن من أخبار الرجل ويستجاد من شعره، وما أخذته العلماء عليهم من الغلط والخطأ فى ألفاظهم أو معانيهم، ومما سبق إليه المتقدمون فأخذه عنهم المتأخرون. وأخبرت عن أقسام الشعر وطبقاته وعن الوجوه التى يختار الشعر عليها ويستحسن لها...." [1].

كان ابن قتيبة فى الغالب يذكر فى ترجمة الشاعر اسمه وأخباره وأمثلة من شعره، واتبع – فى الجملة– ترتيب الشعراء بحسب أزمانهم، إلا ما استوجب عنده الخروج عنه لمناسبة أو ملابسة، كالقرابة التى جعلته يجمع زهيرا وابنه كعبا، والمرقش الأكبر وأخاه أو ابن أخيه المرقش الأصغر، وخفاف بن ندبة وابنة عمه الخنساء. وكصلة الخصومة التى جعلته يجمع جريرا والفرزدق والأخطل. وكصلة المذهب التى جعلته يجمع كثيرا والأحوص، والمجنون والعرجى، وكصلة الصداقة لتى جعلته يجمع الكميت الأسدى والطرماح بن حكيم[2].

([1]) الشعر والشعراء حـ١ ص ٦٥ .
([2]) نصوص نقديه. د/ محمد السعدى فرهود ص ٢٣ .

ثانيا: قضايا النقد الأدبى في مقدمة الكتاب

١- نظام القصيدة- أو البناء الفنى للقصيدة العربية.

يحاول ابن قتيبة أن يفلسف تقاليد القصيدة العربية، وأن يبرر ابتداءاتها بذكر الديار والآثار والدمن وانتقالها من هذه البكائية الشفيفة إلى غناء الحب الذاتى والحب الموضوعى جميعا، ودخولها بعد ذلك فى فاصل من وصف المعاناة وقسوة الرحلة، وولوجها فى النهاية إلى قلب الممدوح وعقله، وربما إلى خزائنه كذلك، مما يوحى بأن عين ابن قتيبة كانت هنا على شعر المديح بالدرجة الأولى[١]، فلم نعهد فى غير المديح مثل هذا المنهج، وليس الشعر كله مديحا حتى يقال: إن نمط الشعر الجاهلى كله هو هذا النمط[٢].

يقول ابن قتيبة:

" وسمعت بعض أهل الأدب يذكر أن مقصد القصيد إنما ابتدأ فيها بذكر الديار والدمن والآثار، فبكى وشكا، وخاطب الربع، واستوقف الرفيق، ليجعل ذلك سببا لذكر أهلها الظاعنين عنها، إذ كان نازلة العمد فى الحلول والظعن على خلاف ما عليه نازلة المدر، لانتقالهم عن ماء إلى ماء، وانتجاعهم الكلأ، وتتبعهم مساقط الغيث حيث كان. ثم وصل ذلك بالنسيب، فشكا شدة الوجد، وألم الفراق، وفرط الصبابة والشوق، ليميل نحوه القلوب، ويصرف إليه الوجوه، وليستدعى به إصغاء الأسماع إليه، لأن التشبيب قريب من النفوس، لائط بالقلوب، لما قد جعل الله فى تركيب العباد من محبة الغزل وإلف النساء، فإذا علم أنه قد استوثق من الإصغاء إليه، والاستماع له، عقب بإيجاب الحقوق، فرحل فى شعره، وشكا النصب والسهر، وسرى الليل وحر الهجير، وإنضاء الراحلة والبعير، فإذا علم أنه

(١) قضايا نقد الشعر فى التراث العربى. د/محمد أحمد العزب، حـ١، ص ٢٥٢.
(٢) نصوص نقدية – د/محمد السعدى فرهود ص ٣٣ .

قد أوجب على صاحبه حق الرجاء، وذمامة التأميل، وقرر عنده ما ناله من المكاره فى المسير، بدأ فى المديح، فبعثه على المكافأة، وهزه للسماح، وفضله على الأشباه، وصغر فى قدره الجزيل[١] ".

فى عرض نظام القصيدة بدأ ابن قتيبة بعرض منهج أهل الجاهلية فى تقصيد القصيد، فقرر أن الشاعر إنما ابتدأ بذكر الآثار والديار والدمن فبكاها وخاطبها واستوقف الرفيق عندها واستبكاهم؛ ليذكر أحبته وأهله النازحين عن هذه الديار وقد كان لهم بها شأن تبدل برحيلهم وانتقالهم فى سبيل النجعة والكلأ والماء. ويصل الحديث بالوجد والشوق إلى هؤلاء الأحبة والأهل؛ ليستثير فى نفوس مخاطبيه العطف عليه والميل إليه، فإذا نجح فى استمالتهم كانت فرصته مهيأة لأن يقدم بين يدى مديحه ما لاقاه فى رحلته من تعب ونصب وسهر، وما أصاب راحلته من هزال، فى سبيل لقاء الممدوح الذى ينتظر مكافأته ويرتقب فضله[٢].

ومهما يكن من أمر هذا المنهج ومخالفته ذوق الشعراء فى القرن الثالث الهجرى، فإن ابن قتيبة أفلح فى وضع تصور لفلسفة تقاليد القصيدة القديمة، وقد ضمن هذا التصور بعض الحس الجمالى، وبعض الحس النفسى، وبعض الحس الاجتماعى[٣]، حين علل لتوالى الأقسام على هذا الترتيب الذى أورده ووجده فى قصيدة المديح، وارتكز فى تعليلاته على عدة أمور، منها ما يتصل بالبيئة الصحراوية وظروف معيشة الناس ما بين كلأ ينتجعونه وماء يردونه، فإذا ما نضب الكلأ وغاض الماء رحلوا فى سبيل غيرهما، ومن هذه التعليلات ما يتصل بالنفس الإنسانية، فالشاعر يدركه فى نفسه وفى المخاطبين، كاسترواح الغزل

---

(١) الشعر والشعراء حـ١ ص ٨٠ ، ٨١ .
(٢) نصوص نقدية. د/ محمد السعدى فرهود ص ٣٣ .
- قراءات فى النقد العربى القديم. د/محمدين محمدين يوسف ص ١٢٨ بتصرف.
- قضايا النقد الأدبى بين القديم والحديث. د/محمد زكى العشماوى ص ٢٥٤ بتصرف.
- اتجاهات النقد الأدبى العربى. د/محمد السعدى فرهود ص ٢٥٦ بتصرف.
(٣) قضايا نقد الشعر فى التراث العربى. د/محمد العزب حـ١ ص ٢٥٣ .

وانبساط الرجال لذكر النساء، ومن هذه التعليلات ما يتصل بصناعة التكسب وما تفرضه على المتكسب أن يدغدغ مشاعر ممدوحه ويتزلف إليه لينتزع منه عطاءه ورفده.

والخطوة الثانية فى عرض منهج القصيدة عند ابن قتيبة ثناؤه على هذا المنهج، وعده جيدا وسليما، واستشهاده لجودته وسلامته[1]، وهذه رؤية تعصبية للقديم حين يرى ابن قتيبة أن هذا المنهج أجود المناهج الشعرية ويدعو الشعراء إلى الاستمساك به، والالتزام بتقاليده الثابتة منذ العصر الجاهلى.

يقول ابن قتيبة:" فالشاعر المجيد من سلك هذه الأساليب، وعدل بين هذه الأقسام، فلم يجعل واحدا منها أغلب على الشعر، ولم يطل فيمل السامعين ، ولم يقطع وفى النفوس ظمأ إلى المزيد.

فقد كان بعض الرجاز أتى نصر بن سيار والى خراسان لبنى أمية، فمدحه بقصيدة تشبيبها مائة بيت، ومديحها عشرة أبيات . فقال نصر: والله ما بقيت كلمة عذبة، ولا معنى لطيف، إلا وقد شغلته عن مديحى بتشبيبك، فإن أردت مديحى فاقتصد فى النسيب.

فأتاه فأنشده:

هل تعرف الدار لأم الغمر ∴ دع ذا وحبر مدحة فى نصر

فقال نصر: لا ذلك ولا هذا . ولكن بين الأمرين "[2].

([1]) نصوص نقدية. د/ محمد السعدى فرهود ص ٣٣ .
-قراءات فى النقد العربى القديم. د/محمدين محمدين يوسف ص ١٢٨ بتصرف.
-قضايا النقد الأدبى بين القديم والحديث. د/محمد زكى العشماوى ص ٢٥٤ بتصرف.
-اتجاهات النقد الأدبى العربى. د/محمد السعدى فرهود ص ٢٥٦ بتصرف.

([2]) الشعر والشعراء حـ١ ص٨١، ٨٢ .

وهنا ينتقل ابن قتيبة إلى غرضه وهو إلزام الشعراء بأن يسلكوا تلك الأساليب القديمة التى عرض لها فى منهج القصيدة الجاهلية ولا يتعدونها، وغاية ما يطالبهم به أن يعدلوا بين هذه الأقسام، فلا يجعلوا واحدا منها أغلب على الشعر، وألا يطيلوا فيملوا السامعين، ولا يقطعوا كلامهم وفى النفوس ظمأ إلى المزيد.

فأين تلك الثورة العارمة التى شنها على القدماء فى مطلع مقدمته، وهو يريد أن يأخذ المحدثون بما أخذ به الأقدمون أنفسهم؟

وأين الإعجاب بالجديد الذى وعد بأنه سيشيد به وأين الإشادة بالمجددين الذى وعد بأنه سينصفهم؟[١].

وبرغم هذا كله فإن أروع ما قدمه ابن قتيبة فى مجال نظام القصيدة هو مناداته بأن يوازن الشاعر بين هذه الأساليب وهذه الأقسام التى يضمها نظام القصيدة، فلا يطيل فى واحد منها ليتحيف من صميمية الآخر، ولا يقطع فى جانب وبالنفوس منه ظمأ إلى المزيد، فهذا دخول فى صميم جمالية الشكل وهندسة البناء[٢].

ونحن نذكر لابن قتيبة بالقبول دعوته إلى القصد والاعتدال والتناسب بين أقسام القصيدة إذا سلمنا بالمنهج الجاهلى.

والخطوة الثالثة فى نظام القصيدة عند ابن قتيبة دعوته إلى التزام هذا النظام وعدم الخروج عليه، وبطريقته التقريرية حظر على المتأخر من الشعراء أن يقف على بنيان مشيد، أو يتخذ غير الناقة والبعير راحلة له، أو يرد الماء الجارى، أو يقطع الريف دون الفلوات[٣].

---

(١) دراسات فى نقد الأدب العربى.د/ بدوى طبانه ص ٢١٩ .
- قراءات فى النقد العربى القديم. د/ محمدين محمدين يوسف ص ١٢٨ بتصرف
(٢) قضايا نقد الشعر فى التراث العربى. د/محمد العزب حـ١ ص ٢٥٣.
(٣) نصوص نقدية. د/ محمد السعدى فرهود ص ٣٤ .

يقول ابن قتيبة " وليس لمتأخر الشعراء أن يخرج عن مذهب المتقدمين فى هذه الأقسام فيقف على منزل عامر، أو يبكى عند مشيد البنيان، لأن المتقدمين وقفوا على المنزل الداثر والرسم العافى، أو يرحل على حمار أو بغل ويصفهما، لأن المتقدمين رحلوا على الناقة والبعير، أو يرد على المياه العذاب الجوارى، لأن المتقدمين وردوا على الأواجن الطوامى، أو يقطع إلى الممدوح منابت النرجس والآس والورد، لأن المتقدمين جروا على قطع منابت الشيح والحنوة والعرارة.

قال خلف الأحمر: قال لى شيخ من أهل الكوفة: أما عجبت من الشاعر قال: أنبت قيصوما وجثجاثا[١]. فاحتمل له، وقلت أنا: أنبت إجاصا وتفاحا[٢]. فلم يحتمل لى" [٣].

فابن قتيبة ما يزال يرى نظام القصيدة الجاهلية هو النظام الأمثل والأحق أن يحتذى، وقد فاته– وهو الذى انتصف للمحدثين ودعا إلى رواية شعرهم– أن منهج الجاهلية كان أقرب إلى طبيعة الناس والأشياء فى الجاهلية، فضلا عن أنه منهج قصيدة المديح، وقد قلنا ليس الشعر كله مديحا حتى نفترض أن نمط المديح هو نمط الشعر كله، إذن كان يجب أن نحترم طبيعة الناس والأشياء فى كل زمان ومكان[٤].

وابن قتيبة بتقرير هذا المنهج وإلزام الشعراء به يصيبنا بكثير من الحيرة حين يحتم هذه التقاليد على كل المبدعين من المتقدمين والمتأخرين على السواء، وهو الذى رفض أن يقدم الشاعر لمجرد القدم، أو أن يؤخر الشاعر لمجرد الحداثة، فلماذا هنا يصر على أن يجعل من هذه الأقسام حتميات لا يجوز للشاعر المحدث

---

(١) نوعان من نبات البوادى.

(٢) نوعان من نبات الريف (الحضر).
(٣) الشعر والشعراء حـ١ ص ٨٢، ٨٣ .
(٤) نصوص نقدية. د/محمد السعدى فرهود ص ٣٥ .

الخروج عليها[١].

ومن رأينا أن فرض منهج ثابت على الشعر والشاعر فيه عبء كبير عليهما، فالشعر مرده إلى الشعور، وهو لا يخضع للمعيار العقلى المجرد الذى يصب الشعراء فى قوالب واحدة، وخير منه أن ندع للشعراء قسطا من الحرية فى التناول والأسلوب[٢].

إن الشاعر يرتبط بزمانه ومكانه ومجتمعه وبيئته ارتباطا يفرض عليه- أراد أم لم يرد- اللصوق النفسى بها، ويجعله – لو انفصل منها أو انحاز إلى غيرها- غريبا لدى نفسه، وغريبا عند من يتذوق شعره. ثم إنه لا ينتظر منه أن يجود الحديث عن غير زمانه ومكانه ومجتمعه وبيئته بمثل ما يجيد الحديث عن واقعه، ولا نضمن أنه مارس ركوب الراحلة حتى يصفها، أو اقتعد الآثار والدمن حتى يبكيها، أو انتجع الغيث والكلأ كما يفعل البدو، وربما عاش فى ريف دائم المطر والخضرة، أو صحب الرفيق ليجوز أن يستوقفه ويستبكيه.

ولا نقصد أن نصادر رأى ابن قتيبة، وإنما نقصد إلى بيان وجه الحق فى هذا الموضوع، وبيان أن التقاليد قابلة للنقاش، حتى لا نتهم بالتزمت والجمود[٣].

٢- قضية الوحدة العضوية.

- ويتناول ابن قتيبة فى كتابه (الشعر والشعراء) قضية (الوحدة العضوية)، تناولا ربما لا يطاول دراسته لكثير من قضايا النقد التى تتسم بالصعوبة والتشابك، ولا ندرى لماذا اكتفى بدور الراوية الذى يحكى ما قيل فى قضية الوحدة غير مضيف إلى من سبقه شيئا كثيرا يستحق الاهتمام والتقدير.

---

(١) قضايا نقد الشعر فى التراث العربى. د/ محمد العزب حـ١ ص ٢٥٣ .
(٢) نصوص نقدية ص ٣٤ .
(٣) السابق ص ٣٥ .
- وانظر: الخصومة بين القدماء والمحدثين فى العصر العباسى الأول. د/عبد اللطيف الحديدى ص١٠٠ – ١٠٣ بتصرف.

ومهما يكن من شئ فإن لابن قتيبة رؤيته فى قضية (الوحدة العضوية) وقد بناها على رواية ما يتصل بها من مقولات الشعراء والنقاد، وأيضا على لمح ألوان من التكلف الذى ينال من القيمة النهائية للقصيدة فى العمل الشعرى الذى لا ينهض البناء فيه على الوحدة والتجانس(١).

يقول ابن قتيبة:" وتتبين التكلف فى الشعر أيضا بأن ترى البيت فيه مقرونا بغير جاره، ومضموما إلى غير لفقه، لذلك قال عمر بن لجأ لبعض الشعراء: أنا أشعر منك. قال: وبم ذلك؟ فقال: لأنى أقول البيت وأخاه، ولأنك تقول البيت وابن عمه" (٢).

فإذا كان قرن البيت بغير جاره، وضم البيت إلى غير لفقه،وقول البيت وابن عمه وليس قول البيت وأخيه يعد– فى نظر ابن قتيبة– تكلفا، فإن ذلك إيماء حقيقى إلى أنه كان ينشد لونا من الإبداع تتحقق فيه أضداد هذه الصفات حتى تحقق له هوية العمل الفنى الذى ينزع عن حس طبيعى، وعن تدفق فى حس التركيب لا تعمّل فيه ولا افتعال(٣).

وقريب من هذا الإيماء النقدى ما رواه ابن قتيبة من قوله: " وقال عبد الله بن سالم لرؤبة: مت يا أبا الجحاف إذا شئت. فقال رؤبة: وكيف ذلك؟ قال: رأيت ابنك عقبة ينشد شعرا له أعجبنى. قال رؤبة: نعم ولكن ليس لشعره قران. يريد أنه لا يقارن البيت بشبهه" (٤).

فهنا إحساس صميم بحاجة الشاعر إلى الصدور عن فلسفة فنية متناغمة، وعن حس بنائى متناغم كذلك، أما مجرد الصدور عن مجرد الخبط الفكرى والخبط البنائى، فما نظن أنه يعطى سوى فن ردئ.

---

(١) قضايا نقد الشعر فى التراث العربى. د/ محمد العزب حـ١ ص٢٦٦، ٢٦٧.
(٢) الشعر والشعراء حـ١ ص ٩٦ .
(٣) قضايا نقد الشعر فى التراث العربى حـ١ ص٢٦٧ .
(٤) الشعر والشعراء حـ١ ص ٩٦ .

وفى رواية أخرى للخبر نفسه يؤكد أبو الجحاف رؤيته التقدمية من خلال بيان مشابه، ولكن الراوى يعلق على قوله: (نعم، ولكن ليس لشعره قران) بقوله: (يريد أنه ليس يشبه بعضه بعضا).

وهذه أدخل فى معنى الوحدة العضوية التى تنهض أساسا على نوع من التجاوب النوعى فى حس التجربة وحس التعبير عنها على السواء.... ويكتفى ابن قتيبة بهذا اللمح إلى قضية الوحدة العضوية فى القصيدة، المعتمد على مقولات مروية تومئ إلى تلك الوحدة دون تدخل منه فى تفصيل القول فى تلك المرويات...

ولكننا نظلم ابن قتيبة إذا لم نشر إلى أن فسفته لتقاليد القصيدة العربية، من ابتدائها بذكر الديار والدمن والآثار، والبكاء، والشكوى، ومخاطبة الربع، واستيقاف الرفيق، ليجعل ذلك سببا لذكر أهلها الظاعنين عنها، ثم وصل ذلك بالنسيب ليميل نحوه القلوب، ويصرف إليه الوجوه، ويستدعى به إصغاء الأسماع إليه، لأن التشبيب قريب من النفوس، لائط بالقلوب، ثم الانتقال إلى إيجاب الحقوق، ومدح الممدوح، لبعثه على المكافأة وهزه للسماح. وهو نظام القصيدة الذى تحدثنا عنه فى القضية السابقة.

نظلم ابن قتيبة إذا لم نشر إلى أن فلسفته هذه لتقاليد القصيدة العربية تعد لونا من ألوان الوحدة فى البناء الفنى للعمل الشعرى، لأن دمج هذه المراحل فى سياق نفسى ومعنوى وفكرى متجانس هكذا، مدخل إلى وحدة البناء الفنى بلا جدال، أو هى لون من ألوان الوحدة فى التنوع، أى القبض على خيط يشد مراحل القصيدة حتى وإن بدا أن بعضها معزول عن بعضها الآخر، حتى لا يترهل البناء الواحد، أو يستحيل إلى مجموعة دوائر مغلقة لا يفضى فيها كل شئ إلى كل شئ[1].

(1) قضايا نقد الشعر فى التراث العربى. د/ محمد العزب حـ١ ص ٢٦٧- ٢٧١بتصرف.
- وانظر: اتجاهات النقد الأدبى العربى. د/ محمد السعدى فرهود ص ٢٥٦- ٢٥٩ بتصرف.

٣- قضية الطبع والتكلف .

ومن القضايا التى ركز عليها ابن قتيبة فى مقدمة كتابه (الشعر والشعراء) قضية (الطبع والتكلف) وليس (الطبع والصنعة)، فإن الصنعة أساس من أسس البناء الفنى لا يتخلف فى الإبداع على الإطلاق. أما التكلف. وهو التعمل الظاهر، واغتصاب الخلق الفنى بلا مدد من طبع موات، وتجربة نابضة- فهو الشىء المرفوض فى الفن بلا حدود[١].

فالتكلف- وليس الصنعة- هو المقابل للطبع عند ابن قتيبة، واستعماله لهذه المقابلة دون المشهور بين النقاد فى مقابلتهم بين: (الطبع والصنعة) يكشف عن ذكاء ابن قتيبة وفطنته ودقة اختياره للكلمات، وفى رأينا الآن أن الصنعة عنده تتأتى للمطبوع من الشعراء كما تتأتى للمتكلفين[٢].

وعلى الرغم من أن النقد العربى القديم تعامل مع مصطلحى (الصنعة والتكلف)- فى مواطن كثيرة من مقولاته النقدية- على أنهما دلالتان لمدلول واحد، وكان فى ذلك خبط واضح تماما، إلا أن هذا العقل العربى القديم الناقد قد فطن كذلك فى مواطن أكثر، إلى أن الصنعة شىء مختلف عن التكلف. وأنها تظل أساسا مطلوبا من أسس البناء الفنى مادامت صنعة فنية حساسة، فإن أوغلت فى التقعر والتصعيب والاعتياص، وتعمدت أن تطفىء فى الإبداع وهج التلقائية، وحاولت أن تغتصب التجارب التى لا تعيشها والتى لا تحسن التعبير عنها. استحالت إلى تكلف بارد ميت، يتعامل مع اللغة كأنه يتعامل مع مجموعة من الأحجار البراقة التى لا تنبض بدفء المعاناة، ولا تترجم سرائر الكون[٣].

---

(١) قضايا نقد الشعر فى التراث العربى. د/ محمد العزب حـ١ ص٢٧١، ٢٧٢ (بتصرف).
(٢) نصوص نقدية. د/ محمد السعدى فرهود ص ٢٦ .
- وانظر: دراسات فى النقد الأدبى عند العرب. د/ محمد على داود ص ١٢١.
(٣) قضايا نقد الشعر فى التراث العربى. حـ١ ص ٢٧٢ .

علامات الشاعر المطبوع.

جعل ابن قتيبة للشاعر المطبوع علامات يستدل عليه منها ويعرف بها، فهو من سمح بالشعر واقتدر على القوافى، وأراك فى صدر بيته عجزه، وفى فاتحته قافيته، وتبينت على شعره رونق الطبع ووشى الغريزة، وإذا امتحن لم يتلعثم ولم يتزجر[١].

يقول ابن قتيبة : " والمطبوع من الشعراء من سمح بالشعر، واقتدر على القوافى، وأراك فى صدر بيته عجزه، وفى فاتحته قافيته، وتبينت على شعره رونق الطبع ووشى الغريزة، وإذا امتحن لم يتلعثم ولم يتزحر " [٢].

فالإسماح بالشعر، والاقتدار على القوافى، وإدخال المتلقى فى دائرة التجربة الشعرية، حتى ليحس مع الشاعر بعجز البيت فى صدره وبقافيته فى فاتحته، والصدور فى كل أولئك عن طبع رائق، وغريزة جميلة، دون تلعثم، سمات الفنان الحقيقى الذى يتعامل مع الإبداع تعامل طبع مؤهل، لا تعامل تكلف خواء. مع ملاحظة أن الطبع هنا غير عار عن الصنعة، ولكنها صنعة مرهفة تكاد تختفى إلا على الخبير[٣].

تفاوت الشعراء فى الطبع:

وليس الطبع شيئا شموليا يقتدر به الشاعر المطبوع على الخوض الفنى فى كل اتجاه، ولكنه شىء يتحدد به شاعره فى اتجاه معين قد لا يتعداه الى سواه[٤].

يقول ابن قتيبة: " والشعراء أيضا فى الطبع مختلفون: منهم من يسهل عليه

---

(١) دراسات فى نقد الأدب العربى. د/بدوى طبانة ص ٢٢٩ .
- وانظر: دراسات فى النقد الأدبى عند العرب. د/ محمد على داود ص ١٢٢ بتصرف.
(٢) الشعر والشعراء حـ١ ص ٩٦ ..
(٣) قضايا نقد الشعر فى التراث العربى. د/ محمد العزب حـ١ ص ٢٧٢ .
(٤) السابق ص ٢٧٣ .

المديح. ويعسر عليه الهجاء، ومنهم من يتسير له المراثى ويتعذر عليه الغزل" [١].

ويصبح المقياس هنا ليس القول فى كل اتجاه، وإنما التفوق فى المنحى المؤهل له الشاعر [٢].

علامات الشعر المطبوع.

ولم يذكر ابن قتيبة أمارات الشعر المطبوع، ولكنها تؤخذ ضمنا مما سبق، ومن كلامه على المطبوعين من الشعراء. فالشعر المطبوع هو الذى صدر عن نفس تجد ما تقول، وانبعث عن سليقة، ووفق الشاعر فيه إلى الإبانة المصقولة الواضحة. على أنه من الصعب تحديد أمارات الشعر المطبوع، لأن ميادين الطبع والشعور والجودة فسيحة متنوعة[٣].

مآخذ على ابن قتيبة فى حديثه عن الطبع.

ويؤخذ على ابن قتيبة أنه فى بعض الأحيان يصف الشعر المطبوع بنعوت تدل على أنه يقصد بالشعر المطبوع الشعر المرتجل، ويقصد بالشاعر المطبوع من كان قادرا على الارتجال، وقول البداهة فى مواقف لم يعد نفسه لها "وإذا امتحن لم يتلعثم ولم يتزحر".

ولا يمكن أن نجارى ابن قتيبة فى رأيه هذا، أو أن نفهم الشاعر المطبوع هذا الفهم، فالشعر تعبير عن شعور، ومواقف الامتحان التى تختبر فيها قدرة الشاعر على إرسال القول لا يمكن أن تكون مقياسا لصدق العاطفة أو حقيقة الشعور، لأن الإحساس لا يتكلف ولا يتطلب، والإجادة فى هذا المضمار إن دلت فإنما تدل على شىء واحد هو القدرة على النظم فى أى معنى أو فى أى غرض، وقد لا يكون ذلك

---

(١) الشعر والشعراء حـ١ ص ١٠٠ .
(٢) قضايا نقد الشعر فى التراث العربى. حـ١ ص ٢٧٣ .
وانظر: اتجاهات النقد الأدبى العربى. د/ محمد السعدى فرهود ص ٢٦٨ بتصرف.
(٣) تاريخ النقد الأدبى عند العرب. طه أحمد ابراهيم ص ١٢٣ .

الغرض مما يساير عاطفة الشاعر، أو يجرى مع هواه وقد يكون فى المقام الذى استحث على القول فيه مالا يثير انفعالاته، وحينئذ يكون الشعر ضربا من الصناعة اللفظية، وهو الجدير أن يحسب من الشعر المتكلف.

أما الارتجال الذى تبعثه حرارة العاطفة وقوة الانفعال فلا نشك فى أنه من أولى علامات الطبع[١].

والقصيدة التى أوردها ابن قتيبة للارتجال فى الشعر المطبوع، وهى للحسين بن مطير الأسدى- من مخضرمى الدولتين- حينما امتحنه والى المدينة، فطلب منه أن يصف مطرا نازلا لوقته، فقال له الحسين: دعنى حتى أشرف وأنظر، فأشرف ونظر، ثم نزل ونظم القصيدة، هى قصيدة ليست بذات بال، وليست من جيد الشعر[٢].

علامات الشعر المتكلَّف.

أما المتكلف من الشعر فله عند ابن قتيبة ملامح دالة عليه، يقول:" والمتكلف من الشعر وإن كان جيدا محكما، فليس به خفاء على ذوى العلم، لتبينهم فيه ما نزل بصاحبه من طول التفكر، وشدة العناء، ورشح الجبين، وكثرة الضرورات، وحذف ما بالمعانى حاجة إليه، وزيادة ما بالمعانى غنى عنه.

كقول الفرزدق فى عمر بن هبيرة لبعض الخلفاء:

أوليـــت العـــراق ورافديـــه ∴ فزاريـــا أحـــذ يـــد القمـــيص

يريد أوليتها خفيف اليد، يعنى فى الخيانة، فاضطرته القافية إلى ذكر القميص.

---

(١) دراسات فى نقد الأدب العربى. د/بدوى طبانة ص ٢٣٠ .
-وانظر: دراسات فى النقد الأدبى عند العرب. د/محمد على داود ص ١٢٢(بتصرف).
(٢) تاريخ النقد الأدبى عند العرب. طه أحمد ابراهيم ص ١٢٤ .

وكقول الآخر:

مـــن اللـــواتى والتـــى اللاتـــى ∴ زعمـــن أنـــى كبـــرت لـــداتى

وكقول الفرزدق:

وعض زمان يا ابن مروان لم يدع ∴ من المال إلا مسحتا أو مجلف

فرفع آخر البيت ضرورة، وأتعب أهل الإعراب فى طلب العلة، وقد سأل بعضهم الفرزدق عن رفعه إياه فشتمه، وقال: علىَّ أن أقول، وعليكم أن تحتجوا))[1].

فسمات الشعر المتكلف هنا هى ظهور الإجهاد عليه، وكثرة الضرورات فيه، وحذف ما يحتاجه المعنى، وزيادة ما بالمعانى غنى عنه، واعتساف طرائق إعرابية ليست ممهودة الشعاب[2].

ويبين ابن قتيبة أن التكلف يبدو أيضا فى البناء العضوى للقصيدة بما يظهر فيها من التفكك بين أبياتها، وعدم الترابط العضوى بينها. فيقول: " وتتبين التكلف فى الشعر أيضا بأن ترى البيت فيه مقرونا بغير جاره، ومضموما إلى غير لفقه، ولذلك قال عمر بن لجأ لبعض الشعراء: أنا أشعر منك. قال: وبم ذلك؟ قال: لأنى أقول البيت وأخاه، وأنت تقول البيت وابن عمه. وقال عبد الله بن سالم لرؤبة: مت يا أبا الجحاف إذا شئت فقال رؤبة: وكيف ذلك؟ قال: رأيت اليوم ابنك عقبة ينشد شعر له أعجبنى. قال رؤبة: نعم ولكن ليس لشعره قران، يريد أنه لا يقارن البيت بشبهه " [3].

فالحكم المدوى الذى أطلقه هنا رؤبة يشير إلى أن الشاعر لا يستكمل أداته الفنية، ولا يمتلك حس التفوق الشعرى إلا إذا استطاع أن يعطى نوعية من الشعر

---

(1) الشعر والشعراء حـ١ ص ٩٤ ، ٩٥ .
(2) قضايا نقد الشعر فى التراث العربى. محمد العزب حـ١ ص ٢٧٥ .
(3) الشعر والشعراء حـ١ ص ٩٦ .

الذى تتلاحم أجزاؤه تلاحما عضويا حميما، لا أن يظل سابحا على وجه التيار هاتفا ببيت من هنا وأبيات من هناك[١].

علامات الشاعر المتكلف.

والمتكلف من الشعراء عند ابن قتيبة، " هو الذى قوم شعره بالثقاف، ونقحه بطول التفتيش، وأعاد فيه النظر بعد النظر، كزهير، والحطيئة. وكان الأصمعى يقول: زهير والحطيئة وأشباههما من الشعراء عبيد الشعر، لأنهم نقحوه، ولم يذهبوا فيه مذهب المطبوعين. وكان الحطيئة يقول: خير الشعر الحولى المنقح المحكك. وكان زهير يسمى كبرى قصائده الحوليات" [٢].

فالشاعر المتكلف هنا هو الشاعر الصناع، القاصد دائما إلى إعادة النظر فى عمله الشعرى، لإضافة لمسة هنا ولمسات هناك، وهذا لا يعد تكلفا مرفوضا، لأن محاولة الشاعر تأمل إبداعه بعد فراغه الوهلى منه، أو حتى إطالة هذا التأمل لتحميل القصيدة كل ما تستطيع حمله من رؤية الشاعر الوجودية ورؤيته الجمالية جميعا، شىء لا يخرج بالشعر من دوائر الطبع إلى دوائر التكلف، فمتى امتلك الشاعر موهبته الفنية الكاملة ورؤيته الوجودية الواضحة، وأداته الجمالية القادرة، فإن أية معاشرة طويلة لإبداعه الشعرى تصبح إضافة إلى رصيد هذا الإبداع وليس طرحا من هذا الرصيد على الإطلاق...

يبقى أن نؤكد على أن ابن قتيبة يعنى إذن بالشاعر المتكلف الشاعر الصناع. وبالشعر المتكلف الشعر الواقع فى قبضة الإجهاد ومحاولات التعمل، وهو فرق ينبغى أن يراعى تماما فى فهم مقولات ابن قتيبة حول الطبع والتكلف، حتى لا نقع فى خطأ الفهم عن هذا العقل النقدى الكبير[٣]، فتلك الأوصاف التى وصف

---

(١) قضايا نقد الشعر فى التراث العربى. حـ١ ص ٢٧٦ .
(٢) الشعر والشعراء حـ١ ص ٨٣ ، ٨٤ .
(٣) قضايا نقد الشعر فى التراث العربى. د/محمد العزب حـ١ ص ٢٧٧، ٢٧٨ .
-وانظر: دراسات فى النقد الأدبى عند العرب. د/ محمد على داود ص ١٢٢ بتصرف.

بها الشعر المطبوع والشعر المتكلف تدل على الفهم والتذوق، ولا يسع أى ناقد إلا أن يقرها ويعجب بقائلها[١].

الصنعة بين المطبوع والمتكلف.

الواقع إن ابن قتيبة يعطى المطبوع قدرا من الصنعة والنظر والاختيار، فهو ذو قدرة على قوافيه، وهو متمكن من أن يريك فى صدر بيته عجزه، وفى فاتحته قافيته، وهو يوشى فيه وشيا تمليه الغريزة، وهو جاهز للامتحان فلا يتلعثم ولا يضطرب ولا يبدو عليه الوهن ولا العجز ولا الانبهار.

أما صنعة المتكلف فهى أوضح من أن نقول فيها، فهو يقوم شعره ويثقفه ويهذبه وينقحه ويفتش عنه ويطيل النظر فيه عودا على بدء[٢].

مآخذ على ابن قتيبة فى التكلف.

ونأخذ على ابن قتيبة أنه عد كثيرا من فحول الشعراء كزهير والحطيئة وأشباههما فى المتكلفين، ليس لأنه رأى فى أشعارهم تلك الفجوات أو آثار شدة العناء ورشح الجبين وكثرة الضرورات، ولكن لأنه علم أنهم قوموا شعرهم بالثقاف ونقحوه بطول التفتيش، وأعادوا فيه النظر بعد النظر، وأن الحطيئة اعترف بأن خير الشعر "الحولى المحكك"، وأن زهيرا كان يسمى قصائده الكبرى "الحوليات"، ويوافق الأصمعى على نعت زهير والحطيئة وأشباههما بعبيد الشعر، لأنهم نقحوه، ولم يذهبوا فيه مذهب المطبوعين.

وإذا كان من تعقيب على هذا الرأى فهو أن الطبع لا يتعارض بحال مع التنقيح والتهذيب، بل إن الأدب المطبوع يزداد جمالا ورونقا بإعادة النظر فيه، وسد ثغراته، واستبدال بعض ألفاظه ببعض، حسبما يرتضيه ذوق الشاعر، ومدى حذقه

(١) دراسات فى نقد الأدب العربى. د/ بدوى طبانه ص ٢٢٩ .
(٢) نصوص نقدية . د/ محمد السعدى فرهود ص ٢٧ .

لصناعته[1].

٤- قضية اللفظ والمعنى .

ومن آثار ابن قتيبة المحمودة فى ميدان النقد الأدبى تقريره أن الشعر لفظ ومعنى، وأن التفاوت فيه والاختلاف فى تقديره يرجعان إلى الإجادة فيهما معا أو الافتنان فى أحدهما لدرجة تنسى الضعف الموجود فى الآخر[2].

أقسام الشعر عنده.

وانطلاقا من ثنائية اللفظ والمعنى يقسم ابن قتيبة الشعر بعد تدبره إلى أربعة أضرب:

أ- ضرب منه حسن لفظه وجاد معناه، كقول أوس بن حجر:

أيتهـــا الـــنفس أجملـــى جزعـــا ∴ إن الـــذى تحـــذرين قـــد وقعـــا

قال: "لم يبتدىء أحد مرثية بأحسن من هذا".

وكقول أبى ذؤيب:

والـــــنفس راغبـــــة إذا رغبتهـــــا ∴ وإذا تـــــرد إلـــــى قليـــــل تقنـــــع

قال: هذا أبدع بيت قالته العرب" ثم يورد أمثله أخرى داخلة فى هذا الضرب.

وقال عن هذا الضرب: "ومثل هذا (فى الشعر) كثير، ليس للإطالة به فى هذا الموضع وجه".

ب- وضرب منه حسن لفظه وحلا فإذا أنت فتشته لم تجد هناك فائدة فى المعنى، كقول القائل:

---

(1) دراسات فى نقد الأدب العربى. د/بدوى طبانة ص ٢٣٠، ٢٣١ .
(2) السابق ص ٢٢٠

ولما قضينا من منى كل حاجة ∴ ومسَّح بالأركان من هو ماسح
وشدت على حدب المهارى رحالنا ∴ ولا ينظر الغادى الذى هو رائح
أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا ∴ وسالت بأعناق المطى الأباطح

قال: "هذه الألفاظ- كما ترى- أحسن شىء مخارج ومطالع ومقاطع، وإن نظرت إلى ما تحتها من المعنى وجدته: ولما قضينا أيام منى واستلمنا الأركان وعالينا إبلنا الأنضاء ومضى الناس لا ينتظر الغادى الرائح، ابتدأنا فى الحديث وسارت المطى فى الأبطح".

وكأنى بابن قتيبة يعيب من هذه الأبيات قدرا من النثرية حال دون تمام انتقال المعنى الذهنى المجرد إلى معنى شعرى تتميز فيه المقومات الفنية وتتضح فعاليتها.

وقال: "وهذا الصنف فى الشعر كثير".

ج- أما الضرب الثالث عنده فهو الذى جاد معناه وقصرت ألفاظه عنه. كقوله لبيد بن ربيعة:

ما عاتب المرء الكريم كنفسه ∴ والمرء يصلحه الجليس الصالح

ويعقب عليه قائلا: "هذا وإن كان جيد المعنى والسبك فإنه قليل الماء والرونق".

ومن الواضح أن هذا التعليق يدل على قوة حضور المعنى الذهنى ومبادرته ابن قتيبة بقوة، وعدم قدرة السبك، مع جودته، على النهوض بذلك المعنى إلى درجة الشعرية. والقيمة التى تستمد من هذا التعليق وتعد أساسا منهجيا جيدا تتمثل فى وجوب علو نسبة الانصهار بين مكونات البنية الشعرية- معنى وسبكا- وانتفاء إمكانية أن يستقل أحدهما بالعبء حتى يجبر نقص الآخر وإن كان هذا النقص هينا يسيرا.

د- أما الضرب الأخير فهو الذى تأخر معناه وتأخر لفظه، كقول الأعشى فى امرأة:

وفوهـــــــا كأقـــــــاحى ∴ غـــذاه دائـــم الهطـــل

كمـــا شـــيب بـــراح بـــا ∴ رد مـــن عســـل النحـــل

ويضيف ابن قتيبة نماذج أخرى لهذا الضرب، ومنها أشعار العلماء، ويقول: عن نماذج هذا الضرب: وهو شعر ليس بصحيح الوزن، ولا حسن الروى، ولا متخير اللفظ، ولا لطيف المعنى [١].

وبيتا الأعشى فى هذا الضرب الأخير برغم ما نستشعره من أن المعنى فى البيتين يجاهد جهادا شاقا ليخرج إطاره الذهنى المجرد كى يكتسب مقومات الشعرية، وبرغم أن البنية الشكلية تعتمد على دعائم بيانية موضوعية، فإننا نشارك ابن قتيبة الرأى لافتقادهما شيئا آخر هو الروح الشعرية التى لا تتأتى إلا من هيئة خاصة لتمازج العنصرين ونسبة معينة تذوب عندها مقومات استقلالية كل عنصر، ويتشكل منها كل فنى موحد وبنية غير قابلة للانقسام[٢].

أشعار العلماء.

والجديد الذى يحسب لابن قتيبة فى هذا المضمار هو أنه تناول أشعار العلماء فوصفها بالتكلف، وبأنه ليس فيها شىء جاء عن إسماح وسهولة، كشعر الأصمعى وشعر ابن المقفع وشعر الخليل، خلا خلف الأحمر فإنه كان أجودهم طبعا، وأكثرهم شعرا[٣].

---

(١) الشعر والشعراء حـ١ ص ٧٠ – ٧٩ .
وانظر: دراسات فى نقد الأدب العربى. د/بدوى طبانة ص ٢٢٠- ٢٢٧ .
– نصوص نقدية . د/محمد السعدى فرهود ص ٢٣- ٢٥ .

(٢) دراسات فى النقد الأدبى عند العرب. د/محمد على داود ص١٢٣- ١٢٥ بتصرف.
وانظر: النقد المنهجى عند العرب. د/محمد مندور ص ٣٥ وما بعدها بتصرف

(٣) دراسات فى نقد الأدب العربى. د/ بدوى طبانه ص ٢٢٧.
- قضايا النقد العربى الحديث. د/ محمد السعدى فرهود ص ٣١، ٣٢ بتصرف

المراد باللفظ والمعنى عنده.

وبدهى أن ابن قتيبة لا يعنى هنا باللفظ مجرد اللفظ القاموسى المحايد، ولكنه يعنى به مجمل الصياغة الشعرية، أى ما نسميه فى المصطلح المعاصر بالشكل، فإذا صح ذلك فإن ابن قتيبة يكون قد حدد ملامح الشكل المنشود فى العمل الشعرى، وهو الشكل الجمالى، لأن ما عداه مرفوض.

وهو يعنى بالمعنى كذلك المعنى الشعرى وليس مطلق المعنى، لأن معانى الشعر غير المعانى السياقية المعتادة[1].

الاعتداد باللفظ والمعنى.

وكلام ابن قتيبة عن اللفظ والمعنى هنا يمتاز بأنه عالجهما مقترنين فى النص الأدبى، ومفهوم كلامه وأقسامه أن العمل الأدبى لا يكون كاملا إلا إذا استوفى شروط الجودة فى الفكرة وفى الصورة، وأنهما متلازمان فيه، لا يحكم عليه بواحدة منهما دون الأخرى.

والأساس الذى يبنى عليه ابن قتيبة رأيه فى تقويم الشعر هو ما اجتمع له من جودة اللفظ وجودة المعنى.

أسس اختيار الشعر غير جودة اللفظ والمعنى.

ولكن ليس هذا هو الأساس الأوحد فى نظر الرواه، بل إنهم قد يختارون الشعر على أسس أخرى، ذكر ابن قتيبة منها الإصابة فى التشبيه[2]، كقول القائل فى وصف القمر:

([1]) قضايا نقد الشعر فى التراث العربى حـ١ ص ٣٠٧ .

([2]) دراسات فى نقد الأدب العربى. د/بدوى طبانة ص ٢٢٧ ، ٢٢٨ .

بـدأنا بنـا وابـن الليـالى كأنـه ∴ حسام جلتْ عنه القيونُ صقيلُ

وقد يختار ويحفظ لخفة الروى كقول الشاعر:

يـا تملـك يـا تملـى ∴ صـلينى وذرى عـذلى
ذرينـى وسـلاحى ثـم (م) شـدى الكـف بـالغزل
ونبلـى وفقاهـا كعـ ∴ ـراقيب قطـا طحـل
ومنـى نظـرة بعـدى ∴ ومنـى نظـرة قبلـى
وثوبـاى جديـدان ∴ وأرخـى شـرك النعـل
وإمـا مـت يـاتملى ∴ فكـونى حـرة مثلـى

وقد يختار ويحفظ لأن قائله لم يقل غيره أو لأن شعره قليل عزيز، كقول عبد الله بن أبى بن سلول:

متى ما يكن مولاك خصمك لا تزل ∴ تـذل ويعلـوك الـذين تصـارع
وهـل يـنهض البـازى بغيـر جناحـه ∴ وإن قـص يومـا ريشـه فهـو واقـع

وقد يختار ويحفظ لأنه غريب فى معناه، كقول القائل فى الفتى:

لـيس الفتـى بفتـى لا يستضـاء بـه ∴ ولا يكـون لـه فـى الأرض آثـار

وقد يختار ويحفظ لنبل قائله ، كقول المهدى:

تفاحـة مـن عنـد تفاحـة ∴ جـاءت فمـاذا صـنعت بـالفؤاد
والله مـا أدرى أأبصـرتها ∴ يقظـان أم أبصـرتها فـى الرقـاد[1]

وبهذا يعرف ابن قتيبة أن هناك عوامل واعتبارات أخرى لحفظ الشعر واختياره غير عامل الإجادة فى الألفاظ والمعانى، وهذه العوامل التى ذكرها ترجع إلى الذوق

(1) الشعر والشعراء حـ١ ص ٩٠ – ٩٣ .

وحده، ما دامت قد فقدت العنصر الموضوعى الذى ينبنى عليه الاستحسان والحفظ والاختيار فى نظره[١].

التعميم فى مصطلحات ابن قتيبة.

ونحب أن نشير هنا إلى قضية صميمة تجاوزها النقد الحديث ربما بلا استثناء، وهى قضية ما زعموه من (إطلاق) فى أحكام ابن قتيبة الجمالية، من مثل قوله: (حسن) و(جاد) و(حلا) و(قصرت) و(تأخر) وغيرها.

فقد زعموا أنها مصطلحات تتسم فى مجملها بالتعميم والحس الذاتى التأثرى، الذى لا يعلل ولا يحدد، ولا يستند فى أحكامه إلى فلسفة نقدية، أو قيم جمالية معينة.

وهذا ظلم فادح، لأن مصطلح العصر العباسى ليس مصطلحنا الآن، ولأن مصطلحنا الآن ليس مصطلح العصر العباسى، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإننا قد لا نفهم من مثل هذه المصطلحات القديمة سوى بوحها المباشر، أما ما تنحنى عليه من فلسفة فنية تنهض على مقدمات كثيرة ومفردات أكثر، فقد كان يعيها بالتأكيد عقل الناقد العباسى، وكان المتلقون يفهمون عنه مدلولها النقدى العميق بمجرد صدورها عنه.

أى أن قول الناقد العباسى: (حسن لفظه) ينطوى على قيمة نقدية هى (الحُسْن) وليس الحسن هنا (مجرد الجمال) ولا (مطلق الروعة)، وإنما هو صيغة نقدية دالة على مضمون محدد، كان يعيه العقل الناقد فى هذا العصر بلا جدال، وكان جمهوره يفهم عنه دلالة هذه الصيغة على هذا المضمون المحدد بلا جدال أيضا[٢].

---

(١) دراسات فى نقد الأدب العربى ص ٢٢٩ .
ـ قضايا النقد الأدبى الحديث . د/محمد السعدى فرهود ص ٣٣، ٣٤ بتصرف.
(٢) قضايا نقد الشعر فى التراث العربى. د/محمد العزب حـ١ ص ٣٠٧، ٣٠٨ .

٥- قضية القديم والحديث.

فصل ابن قتيبة فى مقدمة كتابه (الشعر والشعراء) تلك القضية تفصيلا معللا أقرب ما يكون إلى النظرة النقدية، فهو يرفض منذ البدء أن يسلك سبيل من قلد أو استحسن باستحسان غيره، وإنما ينظر بعين العدل إلى كل جوانب القضية ، فيضع المجيد فى المقدمة حتى ولو تأخر به الزمن، ويضع المسف فى المؤخرة حتى ولو تقدم به الزمن، لأن القيمة الزمانية لا تحدد قيمة الشاعر الفنية، ففى كل عصر مبدعون وناظمون، والقديم الآن كان فى زمانه حديثا، والحديث الآن سيصير فى الزمن الآتى قديما، وإذن (فالقدم والحداثة) قيمتان نسبيتان تماما، لا ينبغى أن نعول عليهما فى الحكم النقدى تعويلا شاملا بلا تدقيق[١].

فابن قتيبة هنا يقرر قاعدة نقدية هامة، وهى ضرورة الحيدة تجاه النص الأدبى الذى ينبغى أن يقدر بمقدار ما حوى من عناصر الجمال التى تسمو به وتميزه من سواه، وصرف النظر عن سائر الاعتبارات الأخرى، فلا ينظر إلى قائله، ولا يقدر على حسب قدمه أو حداثة بيئته، أو على قدر إعجاب الناس به وذيوع صيت صاحبه، بل يكون الاستحسان أو الاستهجان مبينا على التذوق الشخصى وعدم التأثر بآراء الغير[٢].

يقول ابن قتيبة: " ولم أسلك فيما ذكرته من شعر كل شاعر مختارا له، سبيل من قلد، أو استحسن باستحسان غيره، ولا نظرت إلى المتقدم منهم بعين الجلالة لتقدمه، والى المتأخر منهم بعين الاحتقار لتأخره بل نظرت بعين العدل على

---

(١) السابق ص ٣١٢ .
- وانظر: تاريخ النقد الأدبى عند العرب. طه أحمد ابراهيم ص ١٢١ بتصرف.
- قضايا النقد الأدبى بين القديم والحديث. د/محمد زكى العشماوى ص٢٥٢، ٢٥٣ بتصرف

(٢) دراسات فى نقد الأدب العربى. د/بدوى طبانه ص ٢١٤ .
- وانظر: قراءات فى النقد العربى القديم. د/محمدين محمدين يوسف ص ١٢٠ بتصرف
- الخصومة بين القدماء والمحدثين فقى العصر العباسى الأول . د/عبد اللطيف الحديدى ص ١١٢، ١١٣ بتصرف.

الفريقين، وأعطيت كلا حظه، ووفرت عليه حقه.

فإنى رأيت من علمائنا من يستجيد الشعر السخيف لتقدم قائله، ويضعه فى متخيره، ويرذل الشعر الرصين، ولا عيب له عنده إلا أنه قيل فى زمانه، أو أنه رأى قائله.

ولم يقصر الله العلم والشعر والبلاغة على زمن دون زمن، ولا خص به قوما دون قوم، بل جعل ذلك مشتركا مقسوما بين عباده فى كل دهر، وجعل كل قديم حديثا فى عصره، وكل شرف خارجيا فى أوله، فقد كان جرير والفرزدق والأخطل وأمثالهم يعدون محدثين، وكان أبو عمرو ابن العلاء يقول: لقد كثر هذا المحدث وحسن حتى لقد هممت بروايته.

ثم صار هؤلاء قدماء عندنا ببعد العهد منهم، وكذلك يكون من بعدهم لمن بعدنا كالخريمى والعتابى والحسن بن هانىء وأشباههم، فكل من أتى بحسن من قول أو فعل، ذكرناه له، وأثنينا به عليه، ولم يضعه عندنا تأخر قائله أو فاعله، ولا حداثة سنه، كما أن الردىء إذا ورد علينا للمتقدم أو الشريف لم يرفعه عندنا شرف صاحبه ولا تقدمه "[1].

هذا كلام قاطع فى رفض تقديم شاعر ما لمجرد كونه قديما، ورفض تأخير شاعر ما لمجرد كونه حديثا، وهكذا يعتدل ميزان الحكم فى قضية (القديم والحديث) من خلال هذه المقولة الرائعة التى عللت أحكامها النقدية على هذا النحو الجدلى العميق، ودلت على تقدمية فكرية تضع ابن قتيبة فى مكانه الصحيح من حركة الجسارة الفكرية.

وقد أكد ابن قتيبة هذا المنحى النقدى فى مقوله أخرى تضع القضية فى مستوى أكثر اقترابا من المنزع الفنى، لأنه إلى جوار رفضه مجرد القيمة الزمانية

(1) الشعر والشعراء حـ١ ص ٦٨ ، ٦٩ .

أساسا للتفضيل رفض كذلك مجرد القيمة الكمية معيارا للتقديم والتأخير، فإذا تساوى الشعراء من الوجهة الزمانية فوجدوا فى عصر معا وكان أحدهم أكثر شعرا من أصحابه فلا ينبغى أن نسرع بتقديم المكثر على المقلين، وإنما ينبغى أن نتأمل نوعية إبداع كل شاعر على حده، ونقدم الذى نرى الجيد فى شعره أكثر من الجيد فى شعر سواه(١).

يقول ابن قتيبة: " ولا أحسب أحدا من أهل التمييز والنظر، نظر بعين العدل، وترك طريق التقليد، يستطيع أن يقدم أحدا من المتقدمين المكثرين على أحد، إلا بأن يرى الجيد فى شعره أكثر من الجيد فى شعر غيره" (٢).

وإذا كانت تلك أحكام تتصل بعمل الناقد فى تقويم الظاهرة الشعرية، فإن هناك حكما آخر يتجه به ابن قتيبة إلى المبدعين أنفسهم، اولئك الذين قد يتصورن فى مجرد المتابعة والاحتذاء قيمة تضفى على إبداعهم شيئا من الأصالة المتوهمة، حتى ولو كانت هذه المتابعة وهذا الاحتذاء مدخلا إلى تكرار أخطاء وقع فيها السابقون(٣).

يقول ابن قتيبة : " وليس للمحدث أن يتبع المتقدم فى استعمال وحشى الكلام الذى لم يكثر، ككثير من أبنية سيبويه، واستعمال اللغة القليلة فى العرب، كإبدالهم الجيم من الياء كقول القائل: يارب إن كنت قبلت حجتج، يريد " حجتى" وكقولهم: جمل بختج. يريدون "بختى" و "علج" يريدون "على" وإبدالهم الياء من الحرف فى الكلمة المخفوضة كقول الشاعر:

---

(١) قضايا نقد الشعر فى التراث العربى حـ١ ص ٣١٣، ٣١٤ .
- وانظر: قراءات فى النقد العربى القديم. د/محمدين محمدين يوسف ص ١٢١، ١٢٢ بتصرف.
-الخصومة بين القدماء والمحدثين فى العصر العباسى الأول. د/عبد اللطيف الحديدى ص ١١٤، ١١٥ بتصرف.
-اتجاهات النقد الأدبى العربى . د/محمد السعدى فرهود ص ١٩١ بتصرف.
(٢) الشعر والشعراء حـ١ ص ٨٧ .
(٣) قضايا نقد الشعر فى التراث العربى حـ١ ص ٣١٤ .

لهـــا أشـــارير مـــن لحـــم تتمـــره ∴ مـن الثعـالى ووخـز مـن أرانيهـا

يريد من أرانبِها. وكقول الآخر:

ولضفادى جَمِّه نقانقُ

يريد ضفادع. وكإبدالهم الواو من الألف كقولهم: أفْعَوْ، وحُبْلَوْ يريدون أفعى وحبلى.

واستحب له (أى للمحدث) ألا يسلك فيما يقول الأساليب التى لا تصح فى الوزن، ولا تحلو فى الأسماع" [1].

فهذه صرخات ناقد بصير يحذر من خلالها أن يصير الإبداع تكرارا، وأن تكون نماذج القدماء- حتى الجانح منها عن سواء الفصيح- قبلة يذرف فيها المحدثون دموعهم وطاقاتهم بلا تبرير.

ولكننا نحار أمام مقولة لابن قتيبة فى قضية (القديم والحديث) فبعد هذا الانحياز الكامل للقيمة الفنية وحدها، دون تقديم أى من التنازلات لمطلق القدم أو لمطلق الحداثة، يفاجئنا ابن قتيبة بمقولة كثر حولها التأويل وتشعب فيها الفهم، فهو- بعد تخطيط لتقاليد القصيدة القديمة، من ابتدائها بذكر الديار والدمن والآثار، ثم وصل ذلك بالنسيب والغزل، ثم التعقيب على ذلك بإيجاب الحقوق، ثم ابتدائه فى المدح- يفرض على المتأخرين من الشعراء، أو فلنقل المحدثين، ألا يخرجوا على مذهب المتقدمين فى هذه الأقسام.

يقول ابن قتيبة: "وليس لمتأخر الشعراء أن يخرج عن مذهب المتقدمين فى هذه الأقسام، فيقف على منزل عامر، أو يبكى عند مشيد البنيان، لأن المتقدمين وقفوا على المنزل الداثر، والرسم العافى، أو يرحل على حمار أو بغل ويصفهما، لأن المتقدمين رحلوا على الناقة والبعير. أو يرد على المياه العذاب الجوارى، لأن

(1) الشعر والشعراء حـ١ ص ١٠٧، ١٠٨ .

المتقدمين وردوا على الأواجن الطوامى، أو يقطع إلى الممدوح منابت النرجس والآس والورد، لأن المتقدمين جروا على قطع منابت الشيح والحنوة والعرارة".

هل هى ردة نقدية أعادت ابن قتيبة إلى التدثر بعباءة القديم لمجرد كونه قديما؟ هل هى سخرية من مجرد التجديد فى البدائل الصغيرة– العامر بدل الداثر، والنرجس مكان الشيح– دون الثورة على كل النمط البنائى فى تصميم القصيدة؟ هل هى إيماءة إلى أن تجديد أمثال أبى نواس تجديد شكلى مجوف، لأنه استبدل وقوفا على الحانات بالوقوف على الأطلال، مع أن كليهما وقوف؟ هل يريد حقا مطلق الخروج من الوقوف والرحلة لأن الوقوف هنا بدلا من هناك مجرد تغيير فى الموضوع وليس فى المنحى الفنى؟ يخيل إلينا أن أعذارا كثيرة يمكن أن تلتمس لهذا النص الجارح، فيتسق بها مع النظرة المنهجية التى واجه بها ابن قتيبة قضية (القديم والحديث) [1].

٦– قضية التجربة الشعرية– أو – الصدق الفنى.

ويتناول ابن قتيبة قضية (التجربة الشعرية) أو ما يمكن أن نسميه (الصدق الفنى) تناولا نقديا يتسم بالذكاء والجرأة ورفض المتابعة العشوائية، وتتبدى من خلاله شخصيته القوية الناقدة التى تستدرك وتعارض وتصح للآخرين مفاهيمهم سواء فى الحكم على الأعمال الفنية أو فى تفسير هذه الأعمال، مما يؤكد أن ابن قتيبة كان فى فهمه لطبيعة التجربة الشعرية أرسخ قدما... ربما لأن قضية التجربة الشعرية تتصل أساسا بالفهم الكلى لطبيعة الشعر كفن يجب أن لا يختلط بغيره من ألوان التعبير، وينبغى دائما أن يظل على ولائه لقضية الصدق الفنى غير مبال بما وراءها من قيم التسجيل والإحصاء والتقرير والمباشرة، فتلك هموم ينبغى للشعر أن

(1) قضايا نقد الشعر فى التراث العربى. د/محمد العزب حـ١ ص٣١٥- ٣١٧.
- وانظر: الشعر والشعراء حـ١ ص ٨٢، ٨٣ .

يتخلى عنها لما سواه بلا مبالاة[١].

وفى تفصيل القول فى تلك القضية يتحدث ابن قتيبة عن العوامل التى تعوق الشاعر المطبوع عن القول والتدفق، فيقول: " وللشعر تارات يبعد فيها قريبه، ويستصعب فيها ريضه، وكذلك الكلام المنثور فى الرسائل والمقامات والجوابات، فقد يتعذر على الكاتب الأديب، وعلى البليغ الخطيب، ولا يعرف لذلك سبب، إلا أن يكون من عارض يعترض على الغريزة، من سوء غذاء، أو خاطر غم. وكان الفرزدق يقول: أنا أشعر تميم- عند تميم- وربما أتت على ساعة ونزع ضرس أسهل على من قول بيت" [٢].

فهذا تأكيد أولى على ضرورة الصدق الفنى فى ولادة تجربة شعرية حقيقية، وتأكيد آخر على أن التجربة الشعرية ثمرة مخاض حقيقى. وربما كان فى تعليل ابن قتيبة لامتناع الشعر على الشاعر أحيانا لون من التعميم والتبسيط، فليس كل سوء غذاء، وليس كل خاطر غم، يمكن أن يصرف الشاعر عن إبداعه الشعرى، بل ربما كان العكس صحيحا كذلك، لأن الهم المؤرق قد يزلزل الشاعر من أعماقه، وقد يوحى إليه بفيض من الإبداع الحقيقى الذى يعكس تجربة روحية ساخنة، إلا إذا كان ابن قتيبة يعنى بخاطر الغم هذا النوع من الكدر النفسى الذى يشوش رؤية الإنسان للأشياء، ويتركه فى حالة انطفاء كامل يعطل فيه (غريزة) الفن، أو يعطل فيه طبيعة الفنان... صحيح أننا مع الفرزدق فى صيحته المأساوية التى تكشف عن جانب أساسى من جوانب تكوينات الفنان الذى يلوح للجماهير قادرا على الفعل الفنى فى كل الآناء، بينما هو يعانى من حالات حصار قد تلم به ساعة بعد ساعة فإذا هو عاجز عن الإبانة الفنية ... وهنا ينبغى أن نتفطن فى قول الفرزدق إلى قيمة فنية عميقة الدلالة، وهى أن الفنان الزائف يستطيع خداع جماهيره فيصدر فى

(١) قضايا نقد الشعر فى التراث العربى. د/محمد أحمد العزب حـ١ ص٢٧٨
(٢) الشعر والشعراء حـ١ ص ٨٦، ٨٧ .

تعبيره عنها أو عن عالمه الخاص من خلال تلفيق لفظى حتى ولو كان بين هذا التلفيق اللفظى وبين ما يعبر عنه أبوان ومسافات... أما الفنان الحقيقى فقد يؤثر اتهام ملكاته على تزييف هذه الملكات، فهو لا يصدر فى إبداعه إلا عن تجربة حقيقة تنصهر داخل ذاته الشاعرة، ولا يحاول صياغة هذه التجربة إلا إذا امتلك اقتدار التعبير عنها فى طلاقة وتدفق وانسياب(١).

وكما أن للشعر تارات فله كذلك أوقات يرى ابن قتيبة أنها أكثر ملاءمة من غيرها للإبداع الجزيل. يقول ابن قتيبة: "وللشعر أوقات يسرع فيها أتيّه، ويسمح فيها أبيّه: منها أول الليل قبل تغشى الكرى، ومنها: صدر النهار قبل الغداء، ومنها: يوم شرب الدواء، ومنها: الخلوة فى الحبس والمسير. ولهذه العلل تختلف أشعار الشاعر، ورسائل الكتاب".

فهذه المقولة تبدو معقولة من بعض جوانبها، لأنها تحدد للإبداع أوقاتا هى إلى الهدوء والتوحد أقرب منها إلى اللفظ الحياتى الذى قد يصرف جهد الشاعر عن تأمل تكويناته إلى تأمل هشاشة الواقع الخارجى(٢).

ويحدثنا ابن قتيبة عن دواعى الشعر وبواعثه التى تحفز الشاعر إلى الإبداع، وتحرك فيه إمكانية الفعل الفنى، فيقول: " وللشعر دواع تحث البطىء، وتبعث المتكلف، منها: الطمع، ومنها: الشوق، ومنها: الشراب، ومنها الطرب، ومنها: الغضب، وقيل للحطيئة: أى الناس أشعر؟ فأخرج لسانا دقيقا كأنه لسان حية فقال: هذا إذا طمع، وقال أحمد بن يوسف الكاتب لأبى يعقوب الخريمى: مدائحك لمحمد بن منصور بن زياد– كاتب البرامكة– أشعر من مراثيك فيه وأجود، فقال: كنا يومئذ نعمل على الرجاء، ونحن اليوم نعمل على الوفاء، وبينهما بون بعيد، وهذه عندى قصة الكميت فى مدحه بنى أمية وآل أبى طالب، فإنه كان يتشيع وينحرف

(١) قضايا نقد الشعر فى التراث العربى حـ١ ص ٢٧٩ ، ٢٨٠ .
(٢) قضايا نقد الشعر فى التراث العربى. د/ محمد العزب حـ١ ص٢٨١ .
- وانظر: الشعر والشعراء حـ١ ص٨٧ .

عن بنى أمية بالرأى والهوى، وشعره فى بنى أمية أجود منه فى الطالبين، ولا أرى علة ذلك إلا قوة أسباب الطمع، وإيثار النفس لعاجل الدنيا على آجل الآخرة" [١].

فهذه هى المناخات النفسية التى يبدع من خلالها الشاعر– فى رأى ابن قتيبة– والتى يرى أنها إذا ما استثيرت تفجر عنها هذا المطر الشعرى الغزير، إلا أن ابن قتيبة– عامدا أو غير عامد– يطلعنا من خلال هذه السطور على طبائع للشعراء تتفاوت بين النبل والنذالة، وبين الباعث الحقيقى الذى يحرك فى النفس طاقة العناق للقضية الموضوع، والباعث العرضى الذى يحرك فى النفس تسول الأخذ لا شهوة العطاء . وبين هذين الباعثين والاستجابة لكل منهما كذلك أبوان بلا حدود. قد يكون الطمع فى قول الحطيئة نوعا من الطموح والتطلع، وقد يكون الشوق استشرافا لمجهول أو تشوقا لعائد، وقد يكون الطرب والغضب أعمق عواطف الإنسان الفاعل المتحرك. ولكن الذى يعمل فى ظل الرجاء (وهو هنا رجاء المال) أروع مما يعمل فى ظل الوفاء (وهو هنا محض القيمة الإنسانية) شاعر بلا قيم وبلا موقف وبلا قضية ما . وقد نبه إلى ذلك ابن قتيبة حين تحدث عن الكميت الذى وظف شعره فى اتجاه المال وليس فى اتجاه الحب، أى فى اتجاه الطمع وليس فى اتجاه الإيمان[٢].

وكما ذكر ابن قتيبة أثر الزمان ذكر أثر المكان فى تأليف الشعر، فأشار إلى الطبيعة الموحية، والرباع المخلية، والرياض المعشبة، والماء الجارى، والشرف العالى، والمكان الخضر الخالى[٣].

وإذا كانت البواعث على هذا النحو من التغور فى صميم التجربة الشعرية فإن إيقاظها يصبح قضية حتمية حتى يهيىء الشاعر مناخه النفسى للإبداع. يقول ابن قتيبة: (وقيل لكثير: يا أبا صخر، كيف تصنع إذا عسر عليك قول الشعر؟ قال:

---

(١) الشعر والشعراء حـ١ ص ٨٤، ٨٥ .
(٢) قضايا نقد الشعر فى التراث العربى حـ١ ص ٢٨٢ ، ٢٨٣ .
(٣) دراسات فى نقد الأدب العربى. د/ بدوى طبانة ص ٢٣٢ .

أطوف فى الرباع المخلية، والرياض المعشبة، فيسهل على أرصنه، ويسرع إلى أحسنه، ويقال أيضا: إنه لم يستدع شارد الشعر بمثل الماء الجارى، والشرف العالى، والمكان الخضر الخالى، وقال الأحوص:

وأشرفت فى نشز من الأرض يافع وقد تشعف الأيفاع من كان مقصدا

وإذا شعفته الأيفاع مرته واستدرته). إن الشعر جمال إيقاعى وتشكيلى، فلماذا لا ينبجس جدليا من الجمال الكونى والطبيعى؟ إن الجمال يثير الجمال!!

ومن هنا نفهم كثيرا من عذابات الشعراء فى مثل هذه العصور، حين كان يستعصى عليهم القول، ويتأبى عليهم الإبداع، فيجهشون بأحزانهم الذاتية فى مثل هذه المقولات: (وقال عبد الملك بن مروان لأرطاة بن سهية: هل تقول الآن شعرا؟ قال كيف أقول وأنا ما أشرب ولا أطرب ولا أغضب، وإنما يكون الشعر بواحدة من هذه)... (وقيل للشنفرى حين أسر: أنشد، فقال: الإنشاد على حين المسرة).

ألا تعطينا مثل هذه الإجابات إحساسا بجذرية التجربة وحتمية حلولها فى العمل الفنى حتى يصبح عملا فنيا نابضا بوهجه الخاص؟ إن الشاعر هنا يرفض أن يقول الشعر إلا وهو محترق بلهب الممارسة، فإذا شرب ترنح معه شعره، وإذا طرب تأود معه قريضه، وإذا غضب تفجرت معه إيقاعاته.. وهذه هى الحالات التى رفض الشاعر القديم أن يقول الشعر إلا من خلالها أو من خلال أمثالها، أما الانطفاء الذى تسحبه التخلية من هذه الحالات على الطاقة المبدعة فلن يعطى فى النهاية إلا فنا متسما بالركاكة واضطراب الإيقاع الجمالى فى الإبداع[1].

وبهذا تتبلور قضية التجربة الشعرية، أو الصدق الفنى فى هذه المقولات التى أطلقها ابن قتيبة وعبر من خلالها عن دوافع الشعر، وتنبه إلى بحث الحالات

(1) قضايا نقد الشعر فى التراث العربى. د/محمد العزب حـ١ ص ٢٨٣ ، ٢٨٤.
- وانظر: الشعر والشعراء . ابن قتيبة حـ١ ص ٨٥، ٨٦ .

النفسية واختلاف الأوقات ومناظر الطبيعة، وأثر أولئك فى شعر الشاعر أو نثر الكاتب، وقل من النقاد من عرض فى تأليفه لمثل تلك الأمور[1].

١- قضية (عيوب الشكل).

من القضايا التى أثارها ابن قتيبة قضية (عيوب الشكل) فى الشعر خاصة، وقد أدار الحديث حول هذه القضية من زوايا العيوب اللغوية والعروضية، وهذه يمكن تصنيفها إلى قسم ساق أخباره ابن قتيبة بلا تعليق وبلا مناقشة ما، وقسم جادل فيه عن وجهة نظره التفسيرية والنقدية والمعرفية جدلا قربه من إنصاف القضية التعبيرية فى الفن تقريبا كان لا يلبث أن يقع فى التردد والجفول.

وبدءًا يحصر ابن قتيبة عيوب الشعر العروضية فى الإقواء، والسناد، والإيطاء، والإجازة، وهى عيوب تخل- فيما يرى النقد القديم كله- بجمال الشكل الفنى الذى ينبغى أن يتنزه عنها ليسلم له وجوده الجمالى. ومهما يكن من شىء فإن ابن قتيبة حدد عيوب الشعر فى أربعة أشياء، هى كما يقول:

(الإقواء: وهو اختلاف الإعراب فى القوافى، وذلك أن تكون قافية مرفوعة وأخرى مخفوضة، كقول النابغة:

قالت بنو عامر خالوا بنى أسد يا بؤس للجهل ضرارا لأقوام

وقال فيها:

تبدو كواكبه والشمس طالعة لا النور نور ولا الإظلام إظلام

وكان يقال: إن النابغة الذبيانى ، وبشر بن أبى خازم كانا يقويان، فاما النابغة

(1) دراسات فى نقد الأدب العربى. د/بدوى طبانة ص ٢٣٢ .

فدخل يثرب فغنى بشعره ، ففطن فلم يعد للإقواء.

وبعض الناس يسمى هذا الإكفاء، ويزعم أن الإقواء نقصان حرف من فاصلة البيت، كقول حجل بن نضلة، وكان أسر بنت عمرو بن كلثوم، وركب بها المفاوز، واسمها النوار:

حنت نوار ولات هنا حنت وبدا الذى كانت نوار أجنت

.

لما رأت ماء السلا مشروبا والفرت يعصر فى الإناء أرنت

.

سمى إقواء لأنه نقص من عروضه قوة، وكان يستوى البيت بأن تقول: متشربا).

(والسناد: هو أن يختلف إرداف القوافى، كقولك(علينا) فى قافية، و(فينا) فى أخرى، كقول عمرو بن كلثوم:

ألا هبى بصحنك فاصبحينا

.

فالحاء مكسورة.

وقال فى الآخر: فالراء مفتوحة، وهى بمنزلة الحاء .

تصفقها الرياح إذا جرينا

(والإيطاء: هو إعادة القافية مرتين، وليس بعيب عندهم كغيره).

(والإجازة: اختلفوا فى الإجازة. فقال بعضهم: هو أن تكون القوافى مقيدة فتختلف الأرداف، كقول امرىء القيس:

لا يدعى القوم أنى أفر

فكسر الردف، وقال فى بيت آخر:

وكندة حولى جميعاُ صبُر

فضم الردف، وقال فى بيت آخر:

ألحقت شرا بشر

ففتح الردف.

وقال الخليل بن أحمد: هو أن تكون قافية ميما، والأخرى نونا، كقول القائل:

يارب جعد منهم لو تدرين ∴ يضرب ضرب السبط المقاديم

أو طاء والأخرى دالا كقول الآخر:

تالله لولا شيخنا عباد ∴ لكمرونا عندها أو كادوا

فرشط لما كره الفرشاط ∴ بفيشه كأنها ملطاط

وهذا إنما يكون فى الحرفين يخرجان من مخرج واحد، أو مخرجين متقاربين. ويشير ابن قتيبة- بعد استقصاء هذه العيوب العروضية- إلى أن العيب قد يكون فى الإعراب، حين يضطر الشاعر إلى تسكين ما كان ينبغى أن يحركه.. كما يشير إلى أن الشاعر قد يضطر فيقصر الممدود، وليس له أن يمد المقصور، وقد يضطر إلى صرف غير المصروف، وقبيح ألا يصرف المصروف، وأما ترك الهمز فكثير لا عيب فيه على الشاعر.

هذا مجمل العيوب العروضية واللغوية التى يرى ابن قتيبة أنها تتحيف من

قيمة الشكل فى الشعر[1].

٨- قضية (جماليات العمل الشعرى).

وحين يتحدث ابن قتيبة عن (جماليات العمل الشعرى) كأساس من أسس البناء الفنى، نراه يتدرج فى إلمامه بهذه الظاهرة من لمح طبيعة الأسلوب، إلى رصد ريادات الشاعر وابتداعه فى أشياء متعددة إلى تفرده فى مناحى وصفية أو موضوعية أو أسلوبية.

يقول ابن قتيبة تعقبيا على بعض أبيات يراها رديئة الصنعة، بينة التكلف، تحتوى ألفاظا غثة أو ثقيلة: "والعجب عندى من الأصمعى إذ أدخله فى متخيره، وهو شعر ليس بصحيح الوزن، ولا حسن الروى، ولا متخير اللفظ، ولا لطيف المعنى"... وكأنه يرى أن شرط الشعر الجيد: صحة الوزن، وحسن الروى، وانتخاب الألفاظ، ولطف المعنى. لأن كل أولئك يشكل فى مجمله من القيم الجمالية التى لا يكون الشعر شعرا حقيقيا إلا باحتوائها.

ويشرح هذا الإجمال بتفصيل أوسع قليلا فيقول: "قال أبو محمد: وهذا يكثر، وفيما ذكرت منه ما دلك على ما أردت من اختيارك أحسن الروى، وأسهل الألفاظ، وأبعدها من التعقد والاستكراه، وأقربها من أفهام العوام".... فانتخاب الألفاظ هناك هو هنا أسهلها وأبعدها من التعقد والاستكراه، وأقربها من أفهام العوام ... إلا أن شرط اقتراب الألفاظ من أفهام العوام قد يجر إلى خطأ فى الحكم على رؤية ابن قتيبة لقاموس الشاعر الفنى، فهى ليست دعوة إلى الترخص فى المعجم الشعرى الذى يعكس الشاعر من خلاله تجاربه، ولكنها دعوة إلى السهل الممتنع كما يقال، أى إلى نوعية من المعجم الشفاف الموحى القادر على حمل تجربته من جهة،

---

(1) قضايا نقد الشعر فى التراث العربى. د/ محمد أحمد العزب حـ١ ص٢٩٠- ٢٩٤ (بتصرف).
- وانظر: الشعر والشعراء. ابن قتيبة حـ١ ص ١٠١- ١٠٧ .

وعلى استقطاب المتلقى من جهة أخرى. وقد حدد ابن قتيبة نفسه هذا المعنى بما لا يقبل الجدل حين عقب على المقولة السابقة بقوله: (فإنه يقال أسير الشعر والكلام المطمع، يراد الذى يطمع فى مثله من سمعه، وهو مكان النجم من يد المتناول). أى هذا النوع من السياق الفنى الدمث الذى يرى المتلقى نفسه فيه وكأنه يتحدث بلسانه حديثا مأنوسا عن محض عالمه الخاص، فإذا حاول أن يجاريه استعصى عليه، وعرف أنه مستوى من الإبداع يكمن إعجازه فى تخييل إمكانه وهو غير ممكن إلا لفنانه المبدع[١].

٩- قضية (الانتحال).

وحين يعرض ابن قتيبة لقضية (الانتحال) من خلال كتابه (الشعر والشعراء) نجد أنه يتردد فى الحديث عنها على نحوين متباينين: إما أن يروى ما قيل بلا مناقشة ولا تعليل، وإما أن يعلل لحكمه تعليلا خاطفا قد لا يفيض فيه بشرح، وقد لا يؤصل به قاعدة واضحة، إلا أنه تعليل على أية حال.

يقول ابن قتيبة: (أخبرنا أبو حاتم ، حدثنا الأصمعى قال: كان ثلاثة إخوة من بنى سعد لم يأتوا الأمصار فذهب رجزهم، يقال لهم: منذر ونذير، ومنتذر، ويقال: إن قصيدة رؤبة التى أولها:

وقاتم الأعماق طاوى المخترق

لمنتذر)[٢].

فابن قتيبة هنا ((ناقد اكتفى برواية ما قيل كأنه راض ، أو كأنه غير رافض، أو كأنه لا يعنيه من القضية كلها إلا أن يورد أطرافها بلا معاناة)) [٣].

---

(١) قضايا نقد الشعر فى التراث العربى. د/محمد أحمد العزب حـ١.ص ٢٥٤، ٢٥٥ وانظر: الشعر والشعراء. ابن قتيبة حـ١ ص ٧٩ . ص١٠٩ .

(٢) قضايا نقد الشعر في التراث العربى. د/محمد أحمد العزب حـ١ ص ٣٢٩، ٣٣٠. ـ انظر: الشعر والشعراء . ابن قتيبة حـ١ ص ٦٧ .

(٣) قضايا نقد الشعر في التراث العربى. د/محمد أحمد العزب حـ١ ص ٣٣٣ .

ثالثا: تعقيب.

وهكذا يغطى ابن قتيبة فى مقدمة كتابه (الشعر والشعراء) جانبا هائلا من جوانب النقد الأدبى فى التراث العربى، ويستطيع بجدارة ملحوظة أن يضيف إلى رصيد البناء النقدى، وأن يكرر كذلك بعض جوانب هذا البناء، ولكنه هنا وهناك يلفتنا بقوة إلى حجم عطائه وحجم بصره بحقائق النقد الفنى الأصيل[١].

وأفاد النقد الأدبى من ابن قتيبة التنظيم والتحديد، ووضع القواعد التى يستعين بها الناقد حتى ليكاد يلمس ما فى الشعر من عنصر كريم أو هجين، وكذلك التجوز بعض الشيء عن الذوق الأدبى المتقلب المتموج الذى لا يستقر ولا يدوم، وهل هذه القواعد كافية فى تذوق الأدب؟ وهل تستطيع أن تصل إلى قرارة الشعر، وأن تبلغ منه الأعماق؟ إنها نافعة من غير شك، مقوية للحكم على الشعر من غير شك، ولكن مداها يقصر عن إدراك كثير من روحانية الشعر وجماله الفنى، كما أنها قاصرة عن أن تستوعب كل شيء فى الشعر، لكن ذلك لا ينفى أن ابن قتيبة كان رأسا فى العربية مؤمنا بالذوق الأدبى، مقويا للصبغة القديمة فى أكثر ما جاء به[٢]، كما أن له فضلا كبيرا فى تاريخ النقد الأدبى.

وبإعادة النظر فيما سبق عرضه من قضايا النقد الأدبى فى مقدمة كتاب (الشعر والشعراء) لابن قتيبة، يتبين لنا- كما أشرت قبل ذلك – أن ابن قتيبة قد أثار مسائل جديرة بالإثارة، وبسط طائفة من الأفكار والآراء جديرة بالاعتبار، لأنه فى كثير منها يبدو فى صورة الرجل الذى يعمل للتحرر من التقاليد ، والتخلص من القيود التى رأى العلماء والنقاد يعملون للإبقاء عليها وتقييد الأدباء بها[٣].

ومن تلك الآراء الرائعة والأفكار الجيدة، التى أرى أنها تستحق التنويه والإشادة

---

(١) السابق حـ١ ص ٣٥٢ .
(٢) تاريخ النقد الأدبى عند العرب. طه أحمد ابراهيم ص ١٢٦ .
(٣) دراسات فى نقد الأدب العربى. د/بدوى طبانه ص ٢١٤ .

والتأكيد عليها هنا ما يلى:

- تحديده للشاعر الحقيقى الذى يطلق عليه لقب الشاعر، وهو الذى منح الشعر كل طاقته الإبداعية، وأصبح يعرف بالشعر وليس بإبداع آخر، وقدم فيه عطاءات عرف بها وعرفت به. ووهب عمره للشعر[١].

- إشارته إلى الأسباب التى دفعت الشعراء إلى الالتزام بالبناء الفنى للقصيدة، وعدم الخروج عليه ولخصها فى: البيئة الصحراوية وظروف معيشة الناس فيها، والنفس الإنسانية وموقفها من استرواح الغزل والانبساط لذكر النساء، والتكسب وما يفرضه على الشاعر من التزلف والنفاق أحيانا وصولا إلى قلب الممدوح، وارتباط الشاعر النفسى بمواطن أحبته وديار أهله التى تغير حالها برحيلهم عنها وانتقالهم إلى مواطن أخرى[٢].

- مطالبته الشعراء بالعدل بين أقسام البناء الفنى للقصيدة، وعدم الإطالة فى أحدها دون داع، وعدم تجاوز المقدمة القدر المناسب لها، حتى لا تطغى أبياتها على أبيات الغرض الأصلى فى القصيدة[٣].

- رؤيته التقدمية للوحدة العضوية فى القصيدة، وضرورة توافرها فيها، حتى تحقق لها هوية العمل الفنى الذى ينزع عن حس طبيعى، وعن تدفق فى حس التركيب لا تعمل فيه ولا افتعال[٤].

- دقته فى استعمال مصطلح (التكلف) فى قضية (الطبع والتكلف) بدلا من مصطلح (الصنعة) الذى كان سائدا عند غيره، وهذا ذكاء منه، ودقة فى اختيار الكلمات، فالصنعة عنده تتأتى للمطبوع من الشعراء، كما تتأتى

---

(١) مقدمة الشعر والشعراء حـ١ ص ٦٧، ٦٨ .
وانظر: قضايا نقد الشعر فى التراث العربى. د/محمد أحمد العزب حـ١.ص ٢٤٧.
(٢) نصوص نقدية لأعلام النقاد العرب. د/محمد السعدى فرهود ص ٣٣، ٣٤ بتصرف.
(٣) قضايا نقد الشعر فى التراث العربى. د/محمد أحمد العزب حـ١.ص ٢٥٣ بتصرف.
(٤) السابق ص ٢٦٧ بتصرف .

للمتكلفين[١]، وهذا يدل على إدراك ابن قتيبة الدقيق أن الصنعة شيء مختلف عن التكلف، وأنها أساس من أسس البناء الفنى مادامت صنعة حساسة، بعيدة عن التقعر والتصعيب والاعتياص[٢].

- ومن روائع ابن قتيبة وأفكاره الدقيقة إشارته إلى أن الشاعر المطبوع ليس شرطا أن يكون مقتدرا على الخوض فى كل اتجاه، وإنما يجيد فى الاتجاه المؤهل له، حيث أكد على أن من الشعراء من يسهل عليه المديح، ويعسر عليه الهجاء ، ومنهم من يتيسر له المراثى، ويتعذر عليه الغزل. فالطبع عنده ليس شيئا شموليا يقتدر به الشاعر المطبوع على الخوض فى كل اتجاه، ولكنه شيء يتحدد به شاعره فى اتجاه معين قد لا يتعداه إلى سواه، ويصبح المقياس هنا ليس القول فى كل اتجاه، وإنما التفوق فى المنحى المؤهل له الشاعر[٣].

- إشارته إلى أن الشعر لفظ ومعنى، وأن التفاوت فى الشعر، والاختلاف فى تقديره يرجعان إلى الإجادة فى اللفظ والمعنى معا، أو فى أحدهما بقدر ما ينسى الضعف الموجود فى الآخر[٤].

- وصفه أشعار العلماء بالتكلف أمثال الأصمعى، وابن المقفع، والخليل ابن أحمد، واستثناؤه منهم خلف الأحمر الذى حكم عليه بأنه أجودهم طبعا، وأكثرهم شعرا[٥].

- معالجته للفظ والمعنى مقترنين فى النص الأدبى، وإيحاء كلامه عنهما أن العمل الأدبى لا يكون كاملا إلا بجودة اللفظ والمعنى، وأنه لا يحكم

---

(١) نصوص نقدية لأعلام النقاد العرب. د/محمد السعدى فرهود ص ٢٦ بتصرف.
(٢) قضايا نقد الشعر فى التراث العربى. د/محمد أحمد العزب حـ١.ص ٢٧٢.
(٣) السابق ص ٢٧٣ بتصرف .
(٤) دراسات فى نقد الأدب العربى. د/بدوى طبانه ص ٢٣٠، ٢٣١ بتصرف.
(٥) السابق ص ٢٢٧ بتصرف .

عليه بواحد دون الآخر[١].

- إنصافه فى قضية القديم والحديث برفضه أن يسلك سبيل من قلد أو استحسن باستحسان غيره، وحرصه على أن ينظر بعين العدل إلى القدماء والمحدثين. ويعطى كلا منهما حقه، فيضع المجيد فى المقدمة وإن تأخر زمنه، والمسف فى المؤخرة وإن تقدم زمنه.

وكذلك تعليلاته الرائعة والدقيقة لهذا الموقف من القدماء والمحدثين، وهى: القيمة الزمانية لا تحدد قيمة الشاعر الفنية، فى كل عصر مبدعون وناظمون، القديم فى عهده كان حديثا فى زمانه، والحديث الآن سيصير قديما فى الزمن الآتى، القدم والحداثة قيمتان نسبيتان لا يعول عليهما فى الحكم النقدى تعويلا شاملا بلا تدقيق[٢].

- رأيه فى القيمة الكمية برفضه الاعتداد بها معيارا للتقديم والتأخير، وأنه لا ينبغى التسرع فى الحكم على شاعرين وجدا فى عصر واحد، وأحدهما أكثر شعرا من الآخر، بل يجب تأمل هذه الكثرة عند كل شاعر، فيقدم الذى يكثر الجيد فى شعره[٣].

- رفضه تكرار الإبداع عن طريق المتابعة والاحتذاء، لأن ذلك قد يوقع المقلد فى الأخطاء التى قد يقع فيها السابقون، وقد يستعمل المقلد أشياء استعملها السابقون ولا تحسن للاستعمال فى الشعر فى عصره كوحشى الكلام، واللغة القليلة فى العرب، والأساليب التى لا تصح فى الوزن، ولا تحلو فى الأسماع.

وهذا موقف منصف منه حين يحذر من تكرار الإبداع دون داع[٤].

---

(١) السابق ص ٢٢٧، ٢٢٩ بتصرف

(٢) قضايا نقد الشعر فى التراث العربى. د/محمد أحمد العزب حـ١.ص ٣١٢ بتصرف.

(٣) السابق حـ١ ص ٣١٣ ، ٣١٤ بتصرف .

(٤) السابق حـ١ ص ٣١٤ - ٣١٧ بتصرف .

- تأكيده على ضرورة الصدق الفنى فى ولادة تجارب شعرية حقيقية، وأن التجربة الشعرية ثمرة مخاض حقيقى، من خلال الحديث عن العوامل التى تعوق الشاعر المطبوع عن القول والتدفق الشعرى[١].

- تحديده أوقاتا للإبداع الشعرى هى أقرب إلى الهدوء والتوحد، وهى أكثر ملاءمة من غيرها للإبداع الفنى[٢]، كما حدد للإبداع الشعرى أماكنه المناسبة التى تهيىء ذهن الشاعر للنظم، وهى الطبيعة الموحية، والرباع المخلية، والرياض المعشبة، والماء الجارى، والشرف العالى، والمكان الخضر الخالى، وعلى الجملة الجمال الكونى والطبيعى[٣].

- إشارته إلى العيوب التى تعيق جمال الشعر، وتحط من قدره، وهى: العيوب اللغوية والعروضية[٤].

- إشارته إلى أبرز شروط الشعر الجيد، وقد حصرها فى: صحة الوزن، وحسن الروى، وانتخاب الألفاظ، ولطف المعنى. وهى مجموعة من القيم الجمالية التى لا يكون الشعر شعرا حقيقيا إلا باحتوائها[٥].

تلك أبرز آراء ابن قتيبة الرائعة التى تناثرت فى مقدمته لكتابه (الشعر والشعراء). إنها مقدمة نقدية جديرة بالقراءة والدراسة، لأهميتها القصوى فى مجال النقد العربى القديم، ولما حوته من قضايا نقدية، تضمنت فى إطارها العديد من الأفكار والآراء والأحكام النقدية الهامة، ويكفى أنها– من وجهة نظرى– أول مقدمة نقدية قامت على المنهجية الدقيقة فى تراثنا النقدى، وأن صاحبها له بصر عميق بحقائق النقد الفنى الأصيل، وله عطاء هام فى مجال النقد الأدبى، كشف عنه

---

(١) السابق حـ١ ص ٢٧٨ ، ٢٧٩ بتصرف .
(٢) السابق حـ١ ص ٢٨١ .
(٣) السابق حـ١ ص ٢٨٣. دراسات فى نقد الأدب العربى. د/بدوى طبانه ص ٢٣٢ بتصرف.
(٤) قضايا نقد الشعر فى التراث العربى. د/محمد أحمد العزب حـ١.ص٢٩٠- ٢٩٤ بتصرف.
(٥) السابق حـ١ ص ٢٥٤ – ٢٥٦ بتصرف .

بوضوح وجلاء ما تم عرضه فى دراسة تلك المقدمة النقدية الهامة.

لا يعنى هذا- حرصا على الإنصاف والموضوعية- أن المقدمة قد خلت من المثالب والمآخذ، فقد أشرنا إليها بالتفصيل المدعوم بالأدلة والتصويب فى مواضعها من البحث، لكن ما قدمه ابن قتيبة من جهد، ومن آراء وأفكار جديدة، ونظرات سديدة، تذيب تلك المثالب فى تضاعيفها، وتدفع إلى التماس العذر لابن قتيبة فيها، كناقد يحاول- قدر استطاعته- أن يؤصل قضايا النقد القديم فى أطر محددة دقيقة، ويقعد قواعده فى أسس ومبادىء وقواعد يسهل الوقوف عليها والإفادة منها فى دراسة تاريخ النقد العربى القديم ومراحل تطوره، والوقوف الدقيق على جهد هذا العقل النقدى العربى الكبير، الذى لن ينساه تاريخ النقد العربى، والباحثون فى هذا التاريخ على اختلاف الزمان والمكان.

المصادر والمراجع

١- اتجاهات النقد الأدبى العربى . د/محمد السعدى فرهود – دار الطباعة المحمدية- القاهرة- ١٣٩٠هـ/ ١٩٧٠م.

٢- تاريخ النقد الأدبى عند العرب. طه أحمد إبراهيم – دار القلم- بيروت- لبنان- الطبعة الأولى- ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.

٣- الخصومة بين القدماء والمحدثين فى العصر العباسى الأول . د/عبد اللطيف محمد السيد الحديدى- الطبعة الأولى- ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م

٤- دراسات فى نقد الأدب العربى. د/ بدوى طبانة- دار الثقافة – بيروت- لبنان- الطبعة السادسة- ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤م.

٥- دراسات فى النقد الأدبى عند العرب. د/ محمد على داود- مكتبة الكرنك- دمنهور- ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م.

٦- الشعر والشعراء – ابن قتيبة- تحقيق: أحمد محمد شاكر- دار التراث العربى- الطبعة الثالثة- ١٩٧٧م.

٧- قراءات فى النقد العربى القديم. د/ محمدين محمدين يوسف- ٢٠٠٣م.

٨- قضايا النقد الأدبى بين القديم والحديث. د/ محمد زكى العشماوى- دار المعرفة الجامعية- الإسكندرية- ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م.

٩- قضايا النقد الأدبى الحديث . د/محمد السعدى فرهود – دار الطباعة المحمدية- القاهرة- الطبعة الثانية- ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م.

١٠- قضايا نقد الشعر فى التراث العربى.جـ١ د/ محمد أحمد العزب- الطبعة الأولى- ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م.

١١- نصوص نقدية لأعلام النقاد العرب- د/ محمد السعدى فرهود- دار الطباعة المحمدية- القاهرة- الطبعة الثانية- ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م.

١٢- النقد المنهجى عند العرب- د/ محمد مندور- نهضة مصر- القاهرة.